

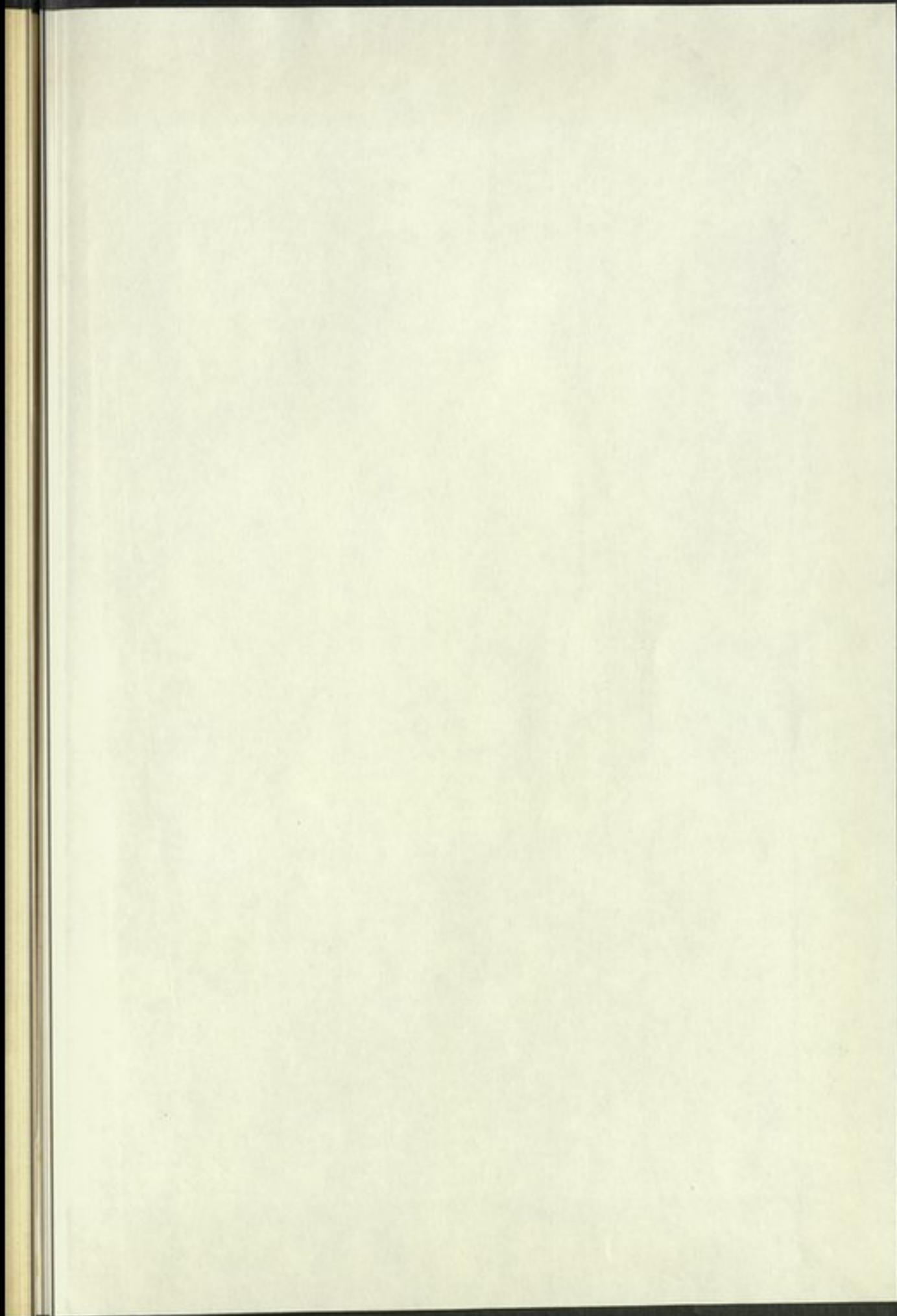


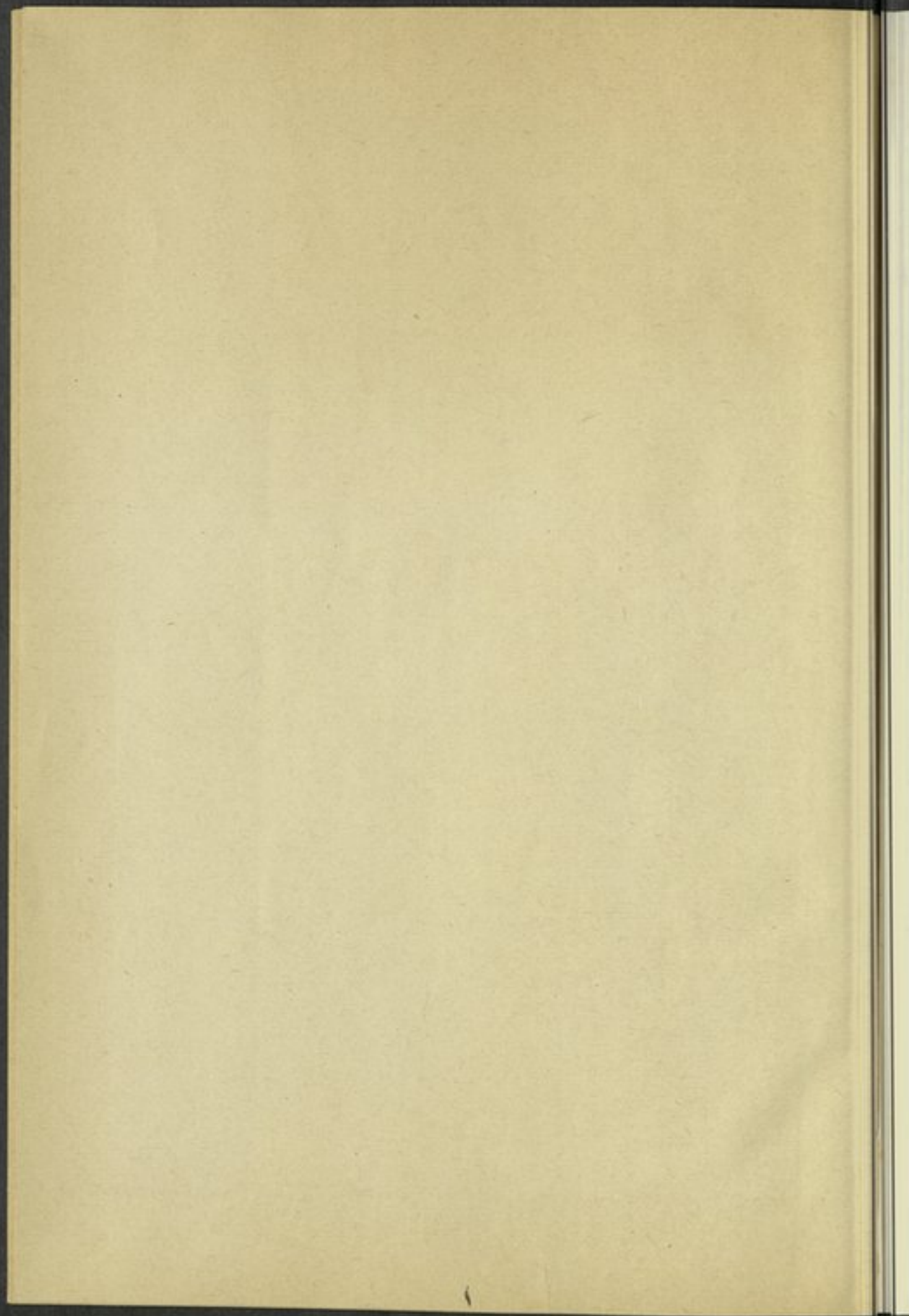
A. U. B. LIBRARY

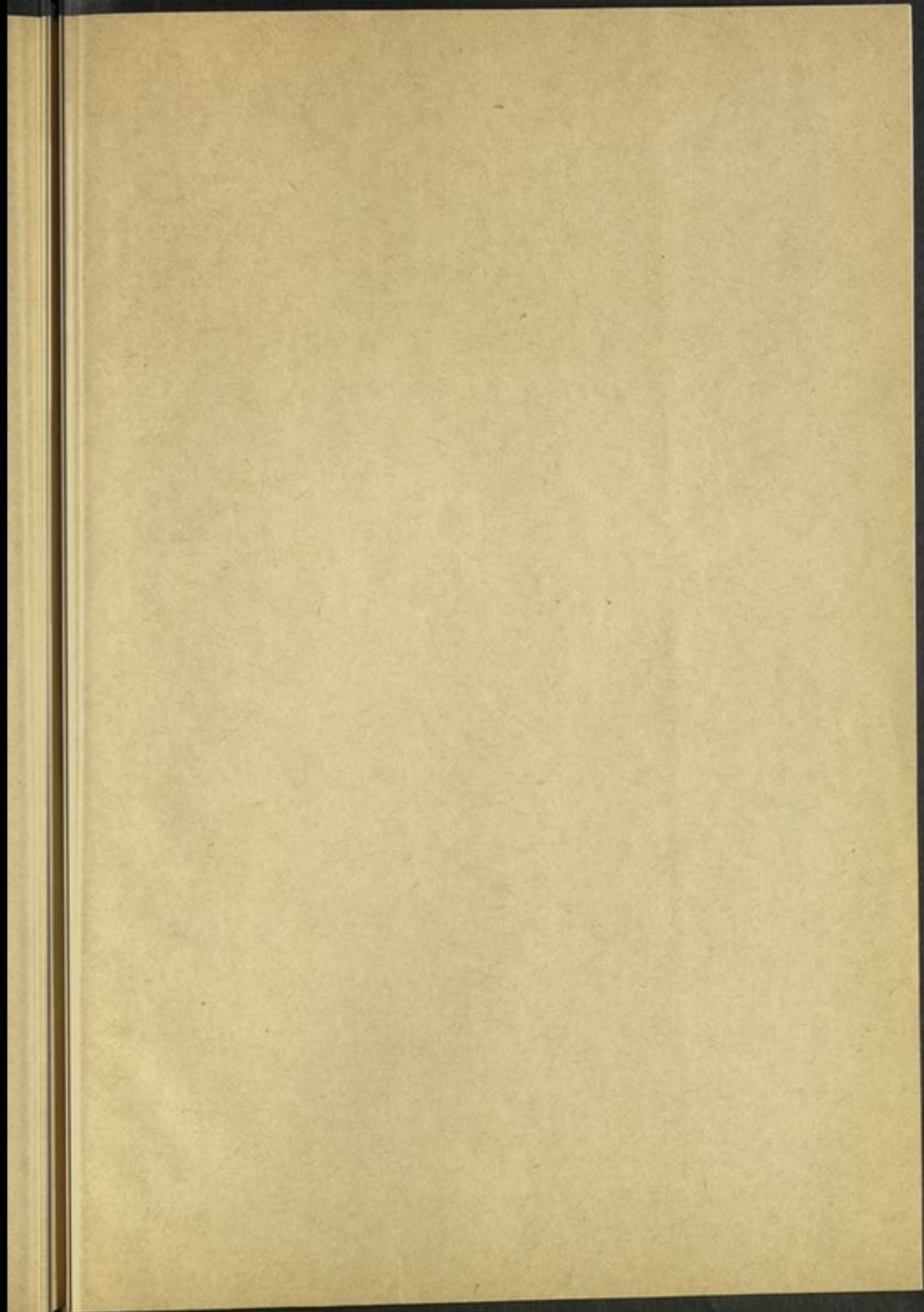
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

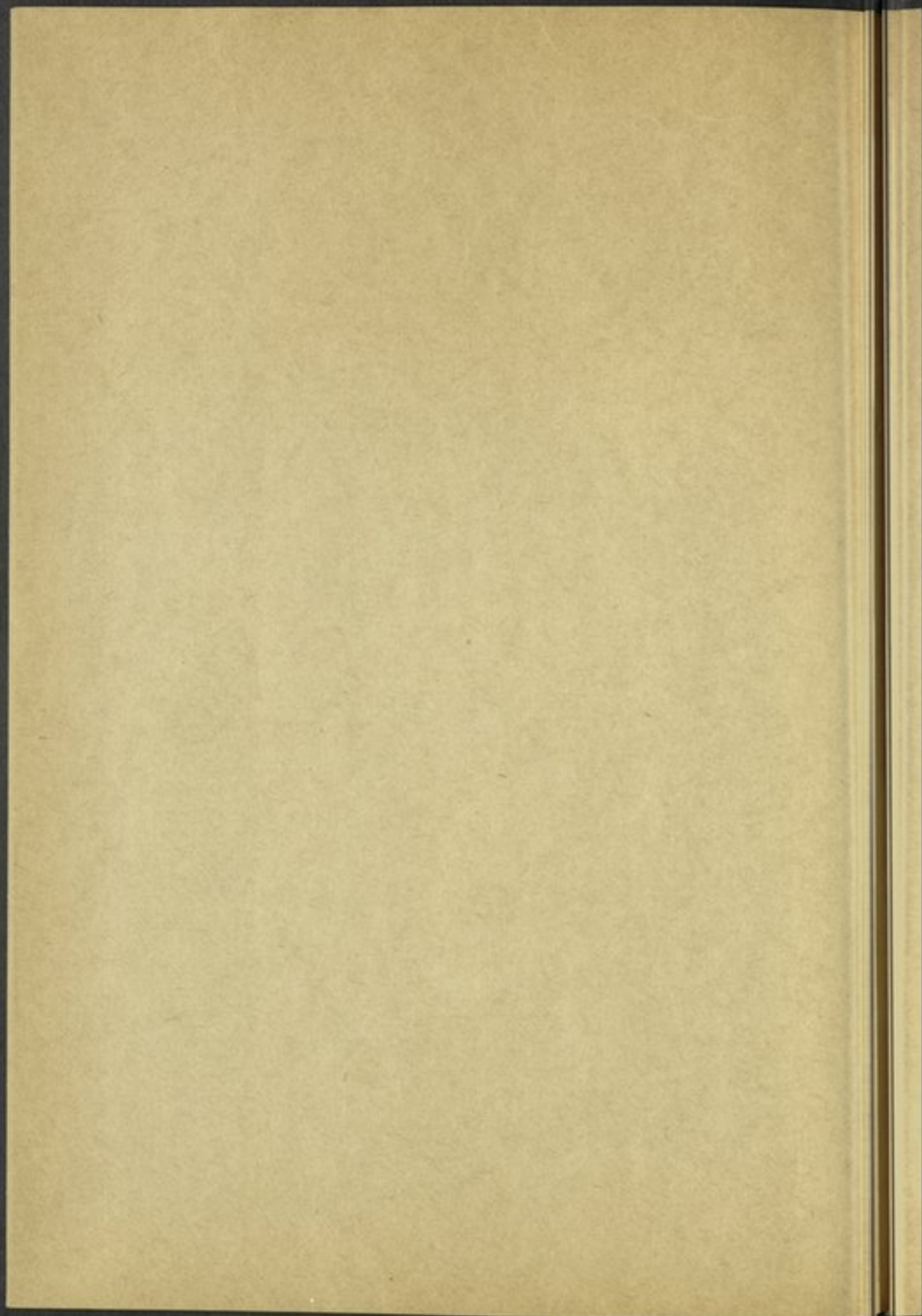


A. U. B. LIBRARY 1









للمؤلف

ارجموز القمر (شعر)

جائزة الحكمة ١٩٣٨
منشورات المكشوف

مواهب (شعر) - ١٩٤٣

منشورات المكشوف

من اعمام الجيل (مجموعة اساطير)

منشورات المكشوف

سام (شعر) - ١٩٤٩

منشورات الثقافة اللبنانية

لبنان الشاعر

الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى



طبع من « لبنان الشاعر »
مئة نسخة على ورق فاخر
مرفقة من ١ الى ١٠٠

892.709

L111A

C.2

صلاح لبكي
رئيس جمعية أهل القلعة

لبنان الشاعر

منشورات الحكمة

بيروت

١٩٥٤

L155-1817

صلاح لبكي، شاعراً

هذا الشاعر الذي شغلته قضية الشعر عندنا ،
فكتب عنه وحدث ، وضمن على نفسه حتى
بالإيحاء الخاطفة . . . هل يسمح لي بالكلام
عليه ، وعلى شعره ، في ما يقال له المقدمة ، وفي
ما قد يسد الثغرة ، الوحيدة ، في كتابه ؟ . .

عهدي وأترابي بشعر اللبكي يعود الى أيام لنا ملاح ،
سقاها الله كنا اثناءها على مقاعد « الحكمة » ، وكان الشارب
منا قد بزغ وطرت . . .

عهدذاك كان دستورنا قولاً سائراً لأمين تقي الدين :
كل الغنى عندنا مالا ومنزلة
بيت من الشعر من غنائه اغنانا

وكانت « الحكمة » خميلة عنادل تمور بالصداح ، وتحقق
للصوغ الحلو والجرس الشجي : فهنا ارنان قصيدة ، وهناك
رجع خطاب ، وهناك قباب لعكاظ ترفع ؛ وفي كل ركن

قوافٍ توقَّع وأبيات تُصكّ ... لكأن الشعر يومذاك
 مائدتهم الفضلى يُجرمون الاطايب ولا يُجرمونه ، ولكأنه
 المحك الأوحده للنبوغ ولا نبوغ بدونه ...
 عهدذاك كان لبنان بأسره شاعراً ،
 وكانت الرومنطيقية الساذجة خير ما يوصف به لبنان ،
 انه الزمان السعيد ! ...

وكان السرب الذي أطلقتها « الحكمة » قبيل الحرب قد
 ركب متون الجواء واحتلّ عالي الاماليد : فمن الارسلانيين
 الى داود عمون ، الى موسى غور ، ومن الملائطين الى جبران
 فعقل فتقسي الدين ، ومن مارون عبود الى الأخطل الصغير ،
 فبولس سلامه ، فغيرهم من ذوي القلوب النيرة والبري
 الايق . كلهم كانوا يعندلون ، وكلنا كنا نعندل لعندلتهم بين
 تلك الافنية وهاتيك الروق . ويشهد الله ، لو ان لها السأ
 تنطق ، لما نطقت بغير شعر يا طالما رشح أعمدتها العناق .

في ذلك المناخ الشاعر ، على انبساط وكدّ ووداد ، وعلى
 أيدي اولئك المتقدمين المفضلين بمن نفذت محبتهم الى قلوبنا
 من الباب الواسع ، كنا ننمو ونكبر ونتعافى ، وترهف فينا
 الاحاسيس ، وتتفتح على الحسن والرواء ، وعلى الطاقة الهادرة

فؤاد كنعان

في احشاء اللفظة ؛ وكان عندنا حلقات ... حلقات همها ان
نشايح واحداً من هؤلاء الشعراء ، فيجري شعره على ألسنتها
في اخذ وعطاء ، وترفع لواءه على سواه . وكانت حلقتنا نحن
من اولئك الذين قضت عليهم طراوة العود ان ينغمسوا في
رومنطيقية العصر حتى الاذنين ، وان لا تمس قلوبهم الا
ريشتها الناعمة وبثها الحنون ، وكنا - الى بقائنا على عهد
المتقدمين العتاق - نهفو الى الخارج ، الى صوت جديد طفق
يجلجل ، فيه من اعماقنا فلذاتها الصارخة ... ذلك الصوت
كان صوت أبي شبكه ، تسلل الى اعماقنا من الكوة الضيقة ...
فغنىناه وأحببناه ، لكنه الحب المذعور ، يخاف ان يهتف
باسمه في العلانية .

وهبت علينا ، اثناء ذلك ، نفحات آخر ، قيل لنا في
وصفها انها « الرمزية » ؛ فما عتمنا - نحن المتشوفين الى كل
جدة - ان غلبنا على أمرنا : نشق لآيات الفصاحة بيدعها
امين نخله ، ونهتز « لقفص » أنيق يصوغه يوسف غصوب ،
ونظرب « لسر في الرلى » يغنيه بولس سلامه ، ويستهوينا
خيال مكوكب لسعيد عقل وبوح مخلي لصلاح لبكي .

في هذه الطليعة ، اطل علينا صلاح لبكي .
وفي « ارجوحة القمر » امسى الشعر لنا كتاب الوسادة :
« يهبي على التعيين انداءً ويمسح كل جفن » ...

مع « ارجوحة القمر » بطل الشعر ، عندنا ، ان يجشد في
« ديوان » ، وبطل ان يكون وصفاً مسطحاً لحادثة ، او
عاطفة ، او شيء ، او عرضاً لنزعات بدهية ؛ وغداً - وان
اختلفت مقاييسه - انطواء رقيقاً على الذات ، وبناً جميلاً ،
وايحاءً هيزاً ، ونشوة تتالى ...

على هذه المقومات ، دون سواها ، يستباح الكلام على
شعر صلاح لبكي من « ارجوحة القمر » ، الى « مواعيد » ،
الى « سأم » ، الى سائر ما له من مجالات منشورة هنا
وهناك .

ولعل أول ما يسترعي انتباهك ، وانت همّ بشعر
اللبكي ، انه لم يحاول قط ان يستنّ لنفسه نهجاً محددآ في
الشعر ، ولا ان يسوق اليك تمقماً من النظريات يجسك فيه
ويجس نفسه ، ولا ان يأتيك بالعوامل والدوافع والمبررات ،
ولا ان يبهرك باللمع الغامضة والماورائيات ، بل كل مائت
بوح وفوح ، ومناخات طلقة ، وغناء ينبجس حارآ من الذات ،
من المناطق الحميمة فيها ، ليتوجه حارآ الى الذات ، الى
المناطق الحميمة فيها ؛ فلا عبودية للفظه ، ولا وثنية للبناء ،
ولا غوغاء احاسيس ، ولا رتوب ولا ابتذال ، بل التصاق
وثيق بين فكرة واداء ، وانسجام أتم بين غوامض راسبة
وكلمة وسيلة ، بحيث يجيل اليك ان اللفظة عنده فلذة مستلة

فؤاد كنعان

من الصميم لتنزل مكانها في الصميم ، فاذا تدبرتها بتقليب
الانامل انهدرت وضاعت ... هذا كله ، على امواج رشيقة ،
واجواء مترفة ، والوان واصداء ، تدغدغ العين والاذن
فلا تقسو ، وتلامس النفس فتسبغ عليها ما تسبغه عليك الموسيقى
في أوج بوحها .

وليبدو من الغبن ان يزجّ بصلاح لبكي في مدرسة
الرمزيين المتعلقة ، أو ينسب الى جماعة الرومنطيين ، فصلاح
لبكي عرف ان ينفرد بين بين ، وان لا يكون ذاك
الغنائي المائع ، ولا ذلك الكثيف الغموض . عرف ان يقنع
بانبوع جمالاته ، فاقتطعها من نفسه اولاً ، ومن الحياة
والطبيعة ، وبعثها في اداء عذب صقيل ؛ اداء ، لعبري ، ما
استرقته صناعة ، ولا أرقه نحت ، ولا بغى عليه غموض ،
ولا تهالك على العبرات وزيف العواطف .

وفي الواقع ، اذا نحن تدرجنا معه الى ما اعطى ،
لألفينا ذلك الانسان الذي يعنى شعره أول ما يعنى بالانسان:
في غبطته وتقاؤله ، في قلقه وشكّه ، في كآبته وحزنه ، في
آلامه وسويدائه ... ويعنى بالطبيعة ، من خلال الانسان
الذي هو ، فيخلع عليها من عنده تلك الحرارة ، بل تلك
الحياة ، فاذا بينهما تفاعل احاسيس في مثل نعومة النيباسم
وأنعم ؛ واذا الطبيعة وما فيها صدى لنفس الشاعر تشكو

وتأسى وتلتاع ، تتوق وتبتهل وتحن : فمن روض يأسف ،
الى وادٍ يشجو ويجزع ، الى لون يموت في الاحداق ، الى
نفس تأخذ من حزن الشتاء ، الى ليل يشاركه شتى الحالات ...

هذا الليل ، هو الهرم الاكبر الذي استلهمه صلاح لبكي
أرجوحته ، واقفاً عليه اروع اغانيه ، حتى لتخال ان أرجوحته
بناة واحدة كلها من وحي الليل ؛ فهو اذا ما ناداه الحب
فلأن الليل هفا ، ولان نجوم الليل تناديه :

هفا الليل قومي نهز المنى بأرجوحة من ضياء القمر

واذا ما دعا حبيبه ، فلأن في الليل شوقاً الى تقطر

انفاسها :

تعالى ففي الليل شوق الى تقطر انفاسنا موهنا

ولقد بلغ تحسسه بالليل وبموجياته ما حمله على الدوار
في مخلي سواده كيفما دار ، فجسده وأنسنه ، ونفخ فيه
الحياة ؛ فهو حيناً شقوق رحيم :

هفا الليل يجمل في راحتيه الى البائسين وعود الهناء

وآخر ، كأن يعيش كسائر الكائنات ، فيتعب ، ويتنفس ،
ويغمض عينيه ، ويستأنس ، وينوح ، ويبكي :

فما لك يا عين لم تهجمي لقد تعب الليل بما يعي

فؤاد كنعان

فصعدَ في السهلِ انقاسهُ وأحسى على الجبلِ الاصلعِ
وأغمضَ عينيه مستانساً بلحنِ من القاتمِ المفرعِ
ينوحُ بعيداً ويشكو جوىً ويبكي على هادئِ الاربعِ

أو يهفّ ، ويرقب ، ويشمّ ، ويرسل انقاسه :

ويهفّ الليلُ وسنانُ الجفونِ يرقبُ الحلمَ بألافِ العيونِ
ويشمُّ الطيبَ من كفِ السكونِ مرسلًا انقاسه مضطرباً

وإذا ما تخلى عن ليله ، فترةً وجيزةً ، فلينتقل الى المساء
ويسأل :

أيُّ حلمٍ يمرُّ في مقلتيكِ عندما يبسطُ المساءُ جناحه ؟

أو ليلمع الى وحشةٍ في النفس :

على محياكِ شيءٌ من وحشةِ الامساءِ

ثم يعود ، من جديد ، الى ليله فيهتف بعفوه وبيضه وسماحه
في واحدة من أحسن حسانه :

رحمَ الليلُ أعينَ السهادِ ومحتَ كفه الشعاعَ المنادي
أخرست كلَّ صبيحةٍ فيمِ الشمسِ ومالتُ بكبرياءِ المهادِ

أيُّ ربِّ يا ليلُ انتِ رُبِّفِ بتجنّتي الوري ورجسِ العبادِ

بسمةً أنتِ في السفوحِ وعفوًّ دائمُ الفيضِ دائمُ الميلاذِ

كلُّ حُسنٍ من فضلِ كُفِّكَ حُسنٌ روعة الصمتِ والجلالِ البادي
ثم يتمنى أخيراً ضمة لامتناهية تشده إليه حتى يميل به
الوجود :

ليت لي ضمةً أشدَّكَ فيها بذراعي معانقٍ متبادِ
فيميل الوجودُ حولي وينهار وتبقى مخلدًا لفؤادي

بهذا الأيمد الفاتن يكحل الليل عيني الشاعر ، ويأبى الا
ان يصحبه في جميع احواله : فهو معه آونة الهناء ، واليه
يفزع ساعات الوحشة ، وتحت قبابه ينتظر طيفها ، وفي
عشاياه القمراء يحلم ويمتني النفس ، وبه يستعين على الوشاة
ويفخر على الفجر والضياء ، ومنه ينهل الناعم الدافئ ،
وعليها منه .. يقلق ويفار :

اي شيء يوشوش الليل في أذنيك حتى أحببت كل مساء
وبماذا تغريك هذي الدراري والسواقي وهدأة الاوداء
انا أحنى عليك من مهجة الليل وأطرى من معطف الظلماء !

أما هذه التي يفار عليها من مهجة الليل ومن معطف
الظلماء ، فهل من داع الى القول إنها من « الارجوحة » بيت
القصيد ، ولا ليل لولاها ولا طيوب ، ولا انتظار ولا
وحشة ، ولا اغتراب ولا كآباء .. وان هذي كلها ، وسواها ،
بما تدور عليه انشيد « الارجوحة » ، انما هي نداءات قلب

فؤاد كنعان

عمر بالحب والفراغ وبذلك الصراع الأزلي القائم بين ذينك
الحب والفراغ !

لكن "الحب" عند صلاح لبكي ليس كالحب الذي الفناه في
« دواوين » الشعراء : لا جسد تؤججه الشهوة ولا « وصال » ..
لا كبت مريض ولا حرمان ، بل قلب يخفق ، وعين
ترف ، ونحمان وتسأل ، وحزن يترجح بين كآبة وسويداء ،
ونفس ابدأ تناجي نفسها وتحلم بموعد ، بلقاء ، بضمة ؛ وقد
تنتظر ، وقد يطول الانتظار ، وقد تخيب ، وقد تحتد الحبية ،
فتتألم وتشكو وتمنى بالسويداء ، وما هي بسويداء ؛ فلا هي
بالفاجعة تفرقه في يأس لا يأس بعده ، ولا وليدة
مرتبكات نفسية ومعقدات ، انما هي الكآبة بنت الذات
العطشى والحس الرهيف ، اذا ما لج بها التوق ، على غير
طائل ، غدت ترى « الحياة أسي وحزن » ، وغدت « تنفع
باليسير من الرجاء » وغدت - في حدها القصي - تنشئ
موعداً مع الموت يمسح عن جبينها الآلام ، و« يمضي بها الى
حيث لا حقد ولا شئنة لحسد ، والى حيث الحب اشداء
زهور جدد » ...

والحبيبة ، عند صلاح لبكي ، ما هي بالمرأة المجسدة ، ولا
هي بالمتجردة ، لا غزال ، هي ، ولا رشا ، بل عالم فوقاني
نسجه خيال الشاعر من أهدى احلامه :

خَلَقْتِكِ مِنْ خَفَقَاتِ الْقُلُوبِ وَرَفَّ الْعَيْونِ وَهَشَّ السَّحَرُ
 وَمِنْ بَهجةِ الرُّوضِ غَبَّ الرَّبيعِ البَليلِ وَمِنْ وَشوشَاتِ السَّمَرِ
 فَانْتِ مِنْ الحَلْمِ أَنْقى وَأَجهى وَأَنْعَمُ مِنْ لَفَاتِ الذِّكْرِ
 وَإِنَّكَ فَوْقَ بُلُوغِ المَنى وَمَرَمِ الحُبَالِ وَظَنِّ البَشْرِ

وهي، مرة، « أغنية له بيضاء »؛ ومرات، « حلم هناء »
 و « سماح في الشعاع »، و « أريج في خطرة النسبات »
 و « حبور على العصون » و « همس ناعم في تنفس الكائنات ».

ولولا قصيدة « تشويق » وما فيها من دعوة الى « الباطل »
 لحسبت المرأة في شعر صلاح لبكي من ذلك الاثير
 الذي لا يطاله حس أو نخدشه أظافير... حتى في « تشويقه »
 هذه لا تني المرأة حبال عينيه « وهج شروق، واشياء من
 نشوة وعبير، ورعشات قطعة من سماء... ولئن هو راودها
 عن نفسها ودعاها الى الحب فليدخر التذكار :

نوراً لساعة الامساء

حينما لا نعود نسكّر بالحب ويمسي التذكار كل العزاء

•

وتغيب المرأة عن « مواعيد » أو تكاد، ويغيب الليل
 ودفؤه، وذاك الهوى المراح، وتغيب وشوشات وخفقات
 واطياب، فاذا صلاح لبكي في « مواعيده » قلب يتوق،

فؤاد كنعان

ووجه يتربّد ، ونفس تعلل نفسها بالآمال . قلب تركناه
مع « الأرجوحة » يتأوه على زمان راح ، وينساءل « مال له لا
يفيق وما لعيشه لا ينجلي » ثم يجيب : أضعت أحلام الهوى
الأول ... ووجه « خطبته الكآبات واقامت في سماه حتى
امسى حزناً » ... ونفس تشيع آمالها واحداً تلو آخر :
« انا كل يوم دافن املاً أعز علي مني » .

وكان هذه الرواسب الحزينة أبت الا ان تطلع في
« مواعيد » توقاً يائساً ، وانتظاراً لا حد له :

انا بانتظار غدٍ يجيء ولا يراني بانتظار !..

وأبت الا ان تثيره على أمسه وحاضره :

انا لست من أمسي ولا من حاضرٍ مترددٍ
انا لي غدُ الآفاق ، لي آماؤها ، انا لي غدي

وأبت الا ان تضاعف تشوّفه وتحرّقه :

ليت لي أن أطوي الآجال جيلاً بعد جيلٍ
فأرى شتى الجمالات الزواهي في الاصول
وأضم الحسن في صدري مدى الدهر الطويل

وهو حين يرى أمانيه على يديه تتكسر ، وحين نجف
أزاهير احلامه ، وتنطوي مواعيده سراباً تلو سراب ، يهتف
من اعماقه :

فها تِ ، حنانيك ، هات القنوط

أو يلود بالجمرة يصطنع بها فردوسه الضائع :

أغرق يومي فيك يا خمر فلا اذكرُ

ويفتدي لي من حوالبك ربيعُ خَضْرُ

وكرمةٌ ربّياً وانفاسٌ لها وعنبرُ

ووشوشاتٌ واحاديثٌ ونجوى أُخْرُ

وكمثل الغرّيد الذي جارت عليه غربة القفص فلا تحققت

مواعيده ، ولا اطفئ ظمأه ، ولا ختم على انتظاره ، راح ،

بين غصص الحبية ، يرجع في كرم شجى أساه ويأسه ، وتلك

المرارات ، يخلفها الاسبى والياس :

المنى يا قلب لو تقنع منها بالقليل

ايها التاكل في جنبي يا رجع هديل

اقصر اليوم فكم شيعت من حلم جميل

ثم تتالى على الشاعر ، بعد ذلك ، الوان القنوط ؛ فمن

« شهوة اليأس » :

فيا هاتفاً واعدأ بالصباح مضى العمرُ والصبحُ لم يطلع

الى « موت الطيور » :

وموتُ الطيرُ لا يندبها نادبٌ منتحبٌ تحت السماء

تنتهي كالطيب لا نوحٌ ولا مأمٌ حفلٌ ولا رجعٌ بكاء

فؤاد كنعان

الى « موت الورد » :

اذ يموت الوردُ لا يمحي
ويخلدُ الطيبُ فإمّا جرّتْ ريحُ الصبا من جانب يعبقُ
الورد لا يفنى فناءً ولو مات وألوى عودُه المورقُ
الى « نهاية » :

لكنّ خلف ضلوعي نوراً يغورُ ويمسي
ووابلاً من تلوج خرساءٍ تغمر نفسي

الى « الارض » :

بي مثل ما بك من أسي ولفوق ما بك بعضُ شأني
الى « موت الشاعر » :

عشتَ غريباً وانقضتْ غربةُ
في الأرضِ ، هل من غربةٍ في السماء ؟

كلها ، اتسيت بالتوق الخائب ، والمواعيد الضائعة ، والغد
السراب .



وكان الشاعر لم يستنزف بعد لحنه ، أو كأن لحنه لم
يستوعب سامه كله ، وذلك العطش المستبد العاقي الى الحسن
والحب والمعرفة ، فعاوده الشوق ، وعاوده الحنين ، وعاودته

الحُببية ، فكانت «سأم» : عمارة واحدة في موضوع واحد ،
وحكاية الانسان مع ارضه وربّه وعقله : يتبرّم بأرضه رغم
ما أعطيه ، ويشكو الى ربّه رغم ما أعطاه ، فاذا ما استجيبت
رغبته ، تمرّد وتاق ؛ تاق ، هذه المرة ، الى المعرفة ، تاق الى
الالوهة ، فطرّد من الفردوس ، ولم يبرحه لا توفقه ولا تمرّده ..

تؤلف «سأم» مشاهد ثلاثة :

- آدم ، مُنح الارض وُسِّلَط عليها فما رأى فيها :

... . الانجوماً تغور وتهوي ، وأخرى بها تضربُ
والا صباحاً بكياً زرياً ينم به ضوءه الاشهبُ ،
ولم يقرع الاذن الا العويلُ يردّده الجبلُ المتعبُ
والا عزيفُ الغصون تحطم والغاب مجرودة سيّبُ
والا هديرُ البحار العماقِ يجيش به صدرها المغضب .

ولماذا لم ير سوى هذه ؟ ..

- به سأم ! ..

ويعجب الله لذا السأم يساور طبيئته ، ويسائل نفسه ممّ
يشكو هذا الذي عجنه على صورته ومثاله ؟ ولم لا يستكين
الى أرضه ويأنس بوحدته ؟ ويبعث له حواء :

غداً انتِ بهجة هذا الوجودِ وانتِ حكاياته لو درى

فؤاد كنعان

وحيرته ، وهي لا تنقضي ، فلا يأتي سائلاً مخبراً
وسراً عليه بعيداً يراك ، ويعجز أن يدرك الجوهراً
ومرّ ظلّ ، فاذا آدم يقول: باللحم! هذي هيا...

وكانت حواء ، وكان عيش رغد وحب دفيء ... لو لم
تستثوه هذه الى المعرفة ، الى الكمال ، الى مساواة الخالق
في خلقه وابداعه :

ثم بنا نبتدع وجوداً جديداً ونسوّيه روعة ونظاماً
ثم بنا نبتدع فما العيش ان لم يك هذا الابداع والابراما

وكانت المأساة، مأساة الانسان يطمح الى المعرفة ليساوي
ربه ، فيحكم عليه بالشقاء ، ويطرد من الجنة ، فيؤثر الموت
لأجل المعرفة على الخلود في الجهل :

عاطني العلم، عاطني الموت، واقنع وخذ الجهل، والتقى والجنانا

.....

وإذا في البعيد ، عند قيام الدهر، طيفان يسحبان الهوانا...

ليس سأم الشاعر ، في بنايته هذه ، سأم جيل كتب
عليه ان يفجع بذاته ، فانفجر ناقماً لاعناً، في ما يقال له شك
وعبت وكفران ، انما هو سأم الانسان الامثل الذي أجمت

صدره رغبة ملجاح الى تخطي المجهول فباء بالفشل ، وظل
رغم فشله مكابراً متمرداً .

وحسب صلاح لبكي انه تصدى في « سأمه » هذي
لمشكلة نفسه - وكل نفس - لمشكلة الانسان الطامح ابدأ
الى فوق ؛ وحسبه ان الشاعرية والجمال لم تبرحاه في سأم
غناه شعراً صافياً يبلغ ، بين حين وحين ، أبعد حدود الصفاء ،
حتى تزهر بنايته على كثير من البناءات الشعرية عندنا ، وحتى
يزدهي بها الشعر الشعر .



وحسبه ، أخيراً ، ان جيلنا ، وقد باخ في عينيه شعر كثير ،
من عتيق ومحدث ، ما برح يقبل على شعر صلاح لبكي بكثير
من التحسس والحب ، لأنه وجد نفسه في شعره ؛ ولان
صلاح لبكي ، في ما غنى وأشجى ، عرف ان يستلهم
نفسه ، نفس « الانسان » الذي فيه !

بيروت - أيلول سنة ١٩٥٤

فؤاد كنعان

رئيس تحرير مجلة « الحكمة »

الشاعرية والجمال

كان برغسن شديد الوطأة على الفلاسفة الذين يبحثون
مسائل الفن من غير ان يمارسوا ولو فناً واحداً ويتعرفوا
الى دقائق اساليبه . وكان يعتقد انه ينبغي لواحدهم ، قبل
الكلام على الشعر ، ان ينظم ولو شعراً خيئنا .

فكيف بنا عندما نتولى حق الارشاد الى مواطن الجمال
والبشاعة في الآثار الادبية ، ومهبة تثقيف الاذواق . انه ينبغي
لنا ان نكون حذرين في الاستماع الى من كان منا ناقداً
وحسب ناقداً غير مؤلف ، ناقداً غير شاعر ، ناقداً غير منتج
الا في موضوع النقد . بل ينبغي لنا ان ندقق في ما نسوق
الى الناس من اقيسة وموازن ، لا يكون قد صقلها الاختبار
الطويل واثبت صحتها .

ولولا اني نظمت في حياتي وعانيت هموم الشعر ونعمت
بافراح الخلق بعد الاكتواء بالآلامه واوجاعه لما شفع بي شيء
في الكلام على الشعر ولو كان لا يدور الا على الشعر
العربي الحديث في لبنان . فانا لست استاذاً في الادب ولا
مؤرخاً من مؤرخيه . واني تقادياً للشطط سأقتصر على
عرض الواقع اجمالاً فاذا ما ذهبت الى رأي فتذوقاً مني .

صلاح لبكي

وحسبي من التوفيق ان اشوقكم الى هذا الشعر العربي
الحديث في لبنان ففتناولوه من مصادره لعل ان يفتني بمحبتكم
ونفتني نفوسكم باكتنااه .

وان لي رجاء اسوقه الى حكومات الدول العربية من
على هذا المنبر المشترك وهو ان تسقط ما يعترض سبيل
الفكر من حواجز جمركية تحد من تبادلته وتفاعله بما تحد من
حرية انتقال الكتاب العربي بين دولة ودولة .

لقد نفهم كل حماية الا هذه الحماية الخائفة المميته .

يوم لا يعني لبنان الا جعله يتقاضاها على الكتاب الوارد
اليه فلا كان غناه ولا كانت ثروته .

ويوم يكتفي بما عنده من تراث روحي مشيحاً عما في
مصر والعراق والدول العربية الاخرى فسيجف ما عنده
ويتحجر ، فلا كان .

لنتطلب الثروة ولكن بغير افقار الفكر . ولنستقل
ونبالغ ما شئنا في توطيد استقلالنا ولكن ابانا والاستقلال
عن الفكر في العالم ولاسيما عن الفكر عند اخواننا . اذ لن
يكون هذا الاستقلال الا منفى وسجناً وتقريباً .

وما اقوله للبنان ما اقوله لنفسي فبالجميع اقوله .

لبنان الشاعر

التحدث عن الجمال وعن الشعر يفترض اننا نعرف ما هو الجمال وما هو الشعر ؟ هل هما قيستان قائمتان بالنسبة الى كل شخص من البشر ؟

في البدء ، في الوجود التوراتي ، يوم لم يكن غير آدم ، اتصوره وحيداً وجهاً لوجه مع نفسه ومع الدنيا ، اتصوره في ذلك المكان البالغ الى كرة القمر ، حيث « شجرة الحياة للذين يتعلمونها » الواقع في اشرف مكان من الارض ، في ناحية الشرق ، بين السماء في « الموطن الالهي والمثابة الخليفة بن كان على صورة الله » المتلالي بهواء معتدل متناه في الرقة والنقاوة ، ذي الاشجار الاليفة الدائمة الخضرة .

واتساءل : هل كانت له علم جميع الاشياء ، ام كانت كصحيفة لم يكتب فيها شيء . ؟

هل كان ينخدع ؟

هل كان يعاني انفعالات نفسية ؟

هل كان جسده يشتهي ما هو ضد الروح ؟

هل كان يحب ويلتذ ويألم ويخاف ويفضب ويحلم ويبيدي شجاعة ويندم ؟

هل كان منفعلًا متغيراً فاسداً ؟

هل كان مائتاً ؟

صلاح لبيكي

وإذا قلنا مع الاكوييني : إن الانسان الاول كان له علم جميع الاشياء بالصور المفاضة من الله ، من غير ان يكون ذلك العلم مغايراً في الحقيقة لعلمنا ، وإنه كان قابلاً لان يزداد علماً ، لا باعتبار عدد المعلومات ، بل باعتبار طريقة المعرفة ، لان ما كان يعلمه بالطريقة العقلية كان قابلاً لان يعلمه بعد ذلك بالتجربة ،

وإن الحالة الاولى لم تكن تحتل ضلال العقل في امر ما ، وإن العقل كان مسيطراً بحيث لم يكن الجسد يشتهي ما هو ضد الروح ، فكان آدم يشتهي كما يجب وما يجب اشتهاؤه ، وإنه كان حاصلًا على جميع الفضائل بالملكة والفعل ، كالحمية والعدالة والايمان والرجاء ، او بالملكة دون الفعل كالندامة والرحمة .

وانه كان منفعلًا في نفسه وفي جسده ، على وجه العموم ، لا على وجه الخصوص ، وبما لا يخرج عن حاله الطبيعية ، بل بما يرجع الى خير الطبيعة ، فلم يكن مائتًا ولو كانت يجس وينام .

إذا قلنا كل هذا مع الاكوييني ، فقد بقيت لنا اسئلة اخرى :

هل كان يتكلم ؟ ولماذا كان يتكلم ؟ ليخاطب من ؟
ليتصل بمن ؟ ليعبر لمن ؟

لبنان الشاعر

لقد كانت كلمه الله ، أي إنه لم يكن يتكلم ، لانه لم يكن بحاجة ان يستخدم الرموز لينقل الى الله ما يدور في خلدّه ، اذا افترضنا انه كان يجول في اعماقه شيء غير ما كان يُفَاضُ عليه .

وكان يَعْقُلُ ، وقد افترضنا أنه كان يعقل ، من غير ما حاجة الى نبرة صوت الله . هل لله نبرة صوت ، وهل هو بحاجة الى رموز لينقل ، جل جلاله ، ما يريد الى خاطر فتاه .

كان التفاهم بين الخالق والمخلوق يتم بمجرد رغبة الواحد في ان يتصل بالآخر .

وكانت الاشياء ولا اسماء لها .

الانسان الاول يعرف لنفسه ، لذاته ، ولا يشعر بحاجة الى نقل هذه المعرفة الى احد ، اذ لم يكن احد موجوداً . فلم يكن ثمة مضطراً لاعطاء الاشياء اسماءها ، ولا لاختراع الفكر للمادة ، ولا لخصره ضمن قوالب التكلم .

لم يكن في الارض عاقل غيره .

كان هو وكان الله من قبله ،

وكان الله يوحى بما يشاء ، وهو يعرف ما يجول في الضمائر ، فلا يجوج الانسان الى الكلام .

صلاح لبكي

في ذلك الزمان لم يكن الحرس عيباً .

ومن يدري ، ربما لو ان الانسان الاول اخرج من فمه صوتاً لحاف نفسه واختبأ وظن في اعماقه غيراً مصوتاً فيه .

وذات صباح من اصاييح الضوء الاول ، والشفق البكر ، ذات صباح عابق بالطيب مغمور بالالوان نشوان بالانغام بالزقزقات والرقرقات ، بالرفيف والحفيف ، ذات صباح حالم ندي طري ، ذات صباح بلبل ، ذات صباح صحيح عليل ، ذات صباح شفاف تقي ، ذات صباح ، فتح عينيه فرآها .
ولاول مرة اختلج في اعماقه ضياء وعراه غير شيء .
واقتربت فكان لقاء .

ثم افترقا فاحس أن بُعدهما غير حاله ، افقده أنسا ، حرمه مجتمعا ، احدث فراغاً . وارادها فنأدى . وكان الاسم الاول . وارادته فاجابت . وكان الاسم الثاني .

وراحا في الارض ، وبدأت التسميات ... لم توازر الملائكة الانسان فيها . بدأت التسميات : تسميات المنظورات والاحاسيس والعواطف بالنسبة اليهما وبالنسبة الى الاشياء . وتكاثرا فكانت افراح وغبطة ، وكانت اوجاع وآلام واحزان . كانت ولادة وكان موت كانت محبة وكان خوف . وكان تاريخ وكانت ذكريات .

لبنان الشاعر

وكان الانسان .

ولم يكن بد من التعبير عن كل ما يخالج القلب .
لقد نشأت قيم الجمال والشعر مع الانسان وفي نفس
الانسان .

رأى في الطبيعة ما اعجب وخلق وما ذكر واسبق
حلماً واستحث التصور والخيال .

راح يميز بين جميل وقبيح ، بين الاحساس الشعري ،
والاحاسيس الاخرى .

صار الانسان تمة فيلسوفاً . عظم همه في التدقيق ، فتش
ثم فتش ثم هو لا يزال يفتش عن السبب الذي جعله يميز بين
جميل وقبيح ، بين مستحب ومستهجن .

وتعاقب الفلاسفة يطلبون للجمال حدّاً او معرفة على لغة
ابن سينا .

في جمهورية افلاطون تقرأ :

س - « واذا الحال هكذا ، افنحصر انفسنا في مراقبة
شعرائنا فنوجب عليهم ان يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق
الجيد ، والا فلا ينظّموا ، او نوسع نطاق مراقبتنا فتشمل
اساتذة كل فن ، فنحظر عليهم ان يطبعوا اعمالهم بطابع الوهن
والفساد والسفالة والسماجة ، سواء في ذلك رسوم المخلوقات

صلاح لبكي

الحية ، او الابنية ، او اي نوع آخر من المصنوعات . ومن لا يستطيع غير ذلك فنناه عن العمل في مدينتنا ؟ لكي لا ينشأ حكمانا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مراعي ردية ، فتسرب الاضرار الى نفوسهم ، فتفسدها ، بما تلتهم يوماً فيوماً من الاقوات من مختلف المواقع . فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لا يشعرون . وعلى الضد من ذلك او لا يجب علينا ان نستدعي فنيين من طراز آخر ، فيتمكنون بقوة عبقريتهم من اكتشاف اثر الجودة والجمال ، فينشأ شباننا بينهم كما في موقع صحي ، يتشربون الصلاح من كل مربع تنبعث منه آي الفنون ، فتؤثر في بصرهم وسمعهم ، كنسجات هابة من مناطق صحية ، فتحملهم منذ حداثتهم ، دون ان يشعروا ، على محبة جمال العقل الحقيقي والتمثل به ، ومطاوعة احكامه .

ونقرأ :

س - « اعني ان محبي النظر والسمع يعجبون بالجميل من الاصوات والاشكال والالوان والصور ، وكل ما دخلت في تركيبه هذه الاشياء من منتوجات الفن . ولكن فهمهم يقصر عن ادراك كنه الجمال واعتناقه . »

غ - نعم انه كما تقول .

س - اولى القادرون على التفكير في الجمال المطلق هم قلائل ؟

لبنان الشاعر

غ - حقاً انهم قلائل .

س - فاذا ادرك امرؤ وجود الاشياء الجميلة ، ولكنه جحد الجمال المطلق وعجز عن اتباع من تقدمه الى ادراكه ، افحلاًماً تحسب حياة انسان كهذا ام يقظة ؟ تأمل أليس الحالم ، في يقظة او في منام ، هو الذي يخلط بين الحقائق وبين الصور المنعكسة عنها ؟

غ - اعترف ان امرءاً كهذا حالم .

ونقرأ :

س - « فما دامت الاشياء العادلة والجميلة غير معروفة باي صورة تكون خيراً . فلا ارى لهذه الاشياء قدراً كبيراً عند حاكم يجهل هذه النقطة . وارى ان لا احد يبلغ حد المعرفة التامة في كنه الجميل والعادل ، ما لم يعرف كنه الخير .

د - انك مصيب في رأيك .

ما هو الجمال ؟ سؤال ما زال يطرحه على انفسهم ، بعد افلاطون ، كبار المفكرين ويحاولون ، في منتهى الجهد ، وضع تحديد شامل لكل العناصر التي يتألف منها ، فيصطدمون بالعقبات . اذ مادة الجمال مكتشفة بالاسرار تأتي ان تنحصر في نطاق القوالب .

هنالك الشكل . وهنالك الجوهر . وللشكل جماله وللجوهر

صلاح لبكي

جماله . واذا كان الشكل يلعب الدور الاهم في الفنون
الشكلية . فالمضمون هو قوام الفنون الادبية .

واذا كان الانسان موضوع الفن ، فقد اثيرت مسألة
علاقة الاداب بالجمال .

وهذا المظهر من مظاهر القضية ليس حديثاً . لقد وضع
افلاطون اسس فلسفة لم تنضب بعد ، اذ لا تزال مرجع
محاولات جميع كبار المفكرين . قال : « انما الجمال اشراق
الحقيقة » .

بعد انقضاء خمسة وعشرين قرناً على افلاطون ينبري مثلاً
في فرنسا بول كلوديل ليقول : « الخير وحده جميل لان
الخير وحده خلاق » .

وينهض شيلنج متوسعاً في نظرية افلاطون : « الجمال هو
الابتداء الالهي وكنه الاشياء . انه وحقيقة كل شيء يعاينان
في فكرة واحدة » .

وهكذا تتوحد عنده فلسفتنا الحقيقة والجمال .

ويعظ كيت : « الجمال هو الحقيقة والحقيقة هي الجمال .
هذا كل ما تعرفه على الارض وكل ما انت محتاج الى
معرفته » .

ولكن اذا كانت الحقيقة مصدر الجمال فهل نستطيع
التأكيد ان الشر مصدر البشاعة . ثم اذا كان هذا القول

لبنان الشاعر

مقبولاً على صعيد الفنون الادبية فهل هو مقبول على صعيد
الفنون الشكلية ؟

يتعمد الفنانون المعاصرون من اساطين الفنون الشكلية
الابتعاد عن قواعد الاتساق ويتبنون التشويه فيمدون ويقصرون
ويعطون الجسم البشري ويفككونه الى مكعبات ودوائر
ونقاط . فهل هم اشراى وهل فنهى شريى ؟

اذا كان الاصوليون من الابداء يمزجون الشر والبشاعة
ويجعلون منها شيئاً واحداً ، فليس ذلك شأن (ويلد) ولا
شأن (بو) ولا شأن اتباع السانبوليست والفوتيريست
والدادايست والسورباليست .

اذ ليست قضية الخير والشر ما يشغل هؤلاء بل قضية
الشكل والاسلوب . انهم يحاولون ، في وضع جماليتهم ،
استبعاد الانسان الذي لولاه لما ركزت الجمالية على مفترق
طرق الخير والشر .

في هذه الجمالية ينهزم الجمال امام البشاعة . وهي جاذبية
البشاعة ما يميز فن العصر الحاضر .

كلاً لم تعد اصداء فن الماضي المشبع بالاصولية المعفور
بالوضوح والصفاء تتجاوب في قلوب المعاصرين الذين يجدون
في البشاعة شكلاً من اشكال الجمال اقدر في عرفهم على
التعبير عن الوضع الفكري الحاضر .

صلاح لبكي

وتبريراً لهذا الموقف او تفسيراً له زعموا : ان التأمل العقلي وحده لا يكفي خلق الاثر الفني . فهذا الاثر انما يولد اولاً وبداهة في نفس الفنان ، وهو انما يمثل في وحدته اشئات عناصر لا نهاية لها من تأثيرات واشكال وبادرات وحركات . فلا موجب بعد للبحث في جمال وبشاعة . مهمة الفنان التعبير الصادق عما يجتليج في الاعماق .

ولكن لا نرانا قد تقدمنا . وسيان اكان الخير مصدر الجمال ام كان الشر مصدر البشاعة ، فانه يجب ان نعرف ما هو الجمال وان نجد له حدآ ، او يشتهه عندنا كل جميل وقبيح . الجمالية الحديثة لا تحاول ايجاد هذا الحد . والغريب من امرها انها تتحدث عن جمال البشاعة . هل يستطيع ان يكون الشيء ضده وان يظل هو ذاته ؟ يذهب الظن الى ان اربابها نظروا الى البشاعة بالنسبة الى احد عناصر الجمال ، اي بالنسبة الى الاتساق وحاولوا ثمة ، ولاسيا في الفنون الشكلية ، التعبير عما يخالج النفوس بواسطة الخطوط الملتوية المتكسرة ، وزعموا ان هذا النوع من التعبير عنصر جمال من نوع آخر ، لا يستلهم الشر ولا ينزع اليه . وبالواقع فاننا اذا اعتبرنا كل شر بشاعة لا نستطيع اعتبار كل بشاعة وليدة شر . في الطبيعة الواح كثيرة بشعة وليس الشر مصدرها . فهل ينبغي لنا ان نفرق بين جمالية الفنون الادبية وجمالية الفنون الشكلية ؟

لبنان الشاعر

انه ينبغي لنا ان نفرّق هذا التفريق او لا نصل الى ما ذهب اليه اهل الجمالية الحديثة .

من الثابت عند الاصوليين من فلاسفة ولاهوتيين ان الخير والشر ليسا فعلين مقومين الا في الامور الخلقية التي تستفيد نوعيتها من الغاية التي هي موضوع الارادة المتعلقة به الامور الخلقية .

ثم انهم يذهبون الى ان الشر موجود في الاشياء ولا يعطون للشر معنى العلة التي تصدر عنها الافعال ، او معنى الوجودية . فقولهم ان الشر هو في الاشياء لا يفيد ان الشر شيء ما ، بل يعني فقدان الشيء خيريته او كماله ، فالعنى بهذا المعنى فقط شر عندهم .

يقول الاكوييني : « ان الشر بعيد عن الموجود مطلقاً وعن الالموجود مطلقاً ، اذ ليس ملكة ولا نقياً صرفاً بل عدماً خاصاً » .

فاذا اعطينا فقدان الاشياء خيريتها او كمالها الطبيعي اسماً غير اسم الشر لنفرق بين ما يعتبر شراً بالمعنى الخلقى وما يعتبر في الاشياء شراً بمعنى فقدانها طبيعة كمالها ، ادركنا مذهب الجمالين المحدثين بما يتعلق بالفنون الشكلية .

ولكن هذا التفريق اذا كان ينبغي عن المسوخ وعن اساليب

صلاح لبكي

التعبير المسوخ صفة الشر بالمعنى الخلقى ، فانه لا ينزهها
عن البشاعة .

نعم ، اذا اعتبرنا الفن قضية اسلوب وحسب ، لا غاية
له الا الفن ، فقد جاز لنا ان نستبعد فكري الخير والشر
عن بعض الفنون الادبية ، والشكلية على السواء ، وان نزعم
مع من يزعمون أن البشاعة شكل من اشكال التعبير ، بل
ان لا بشاعة ولا جمال .

ولكن الفن ليس قضية اسلوب وحسب . هو قضية جوهر
ايضاً ، قضية عدالة اعظم واسمى ، قضية جهد لخلق الحياة .

ما هو الجمال ؟

هنالك محاولات لتعريفه بانفعال الناس به ، ومحاولات
اخرى لتحديده بخصائصه الجوهرية . فما هي خصائصه ؟

قيل :

- خصائصه هي النظام ، اي الوحدة في التنوع .

- خصائصه التعبير عن النفس بواسطة المادة ، وعن الروح
بواسطة الجسد ، وعن اللامتناهي بالمتناهي .

الا ان هذه الخصائص لا تعطي الحد الجامع المانع .
فلكم من نظام ولكم من تناسق بارد لا يمتثان الى الجمال

لبنان الشاعر

بصلة . انه لمن شأن الفن احياناً ان يحدث فوضى اقرب الى الجمال من النظام .

الجمال في جوهره تعبير عن حياة غنية حرة منسقة منتصرة . لا يكون الفعل او الشيء جميلاً الا بما يوحي اليها من افكار وعواطف نبيلة . الجمال تعبير عن الحياة وعلى الاخص عن حياة الروح . والحلي لا يحن الا الى الحياة ولا يجب ولا يفهم الا ما يظن انه واجد في الاشياء من نفسه ، حتى ليعبر احياناً هذه الاشياء ذكاه من ذكائه ، وعاطفة من عاطفته ونفساً من نفسه .

يقول اريسطو في كتابه عن الشعر : « كل جمال يجب ان يشبه الحياة » . ويقول افلاطون : « ان ما يعطي الاشكال بوادرها الانيقة انما هو تعبيرها عن صفات النفس في صميم المادة . افليست هي الحياة والحركة والتنوع الغني والنظام والوحدة معاً ما يعجبنا في الجسد » .

الجمال تعبير عن الحياة ولكنه ليس تعبيراً عن اية حياة . هنالك اشكال من الحياة قلقة ناقصة مشوهة تشويهاً غنياً لا تستطيع ان تكون خليقة باكثر من قرفنا او احتقارنا او شفقتنا . ومن النفوس ما هي مبتلاة بحياة شاذة مضطربة ، حياة الاثم والشهوات . التعبير عن حياة غنية حرة منسقة بوقظ وحدته حينئذ واعجابنا وحماستنا .

صلاح لبكي

ونتساءل بعد : هل هذا الحد موثوق ؟

ونجيب هو خير ما وصل اليه التفكير الفلسفي الجمالي .
ان عجز العقل عن ايجاد تعريف اكمل هو الذي طوح به ،
بغية التعبير عن كوامن النفس تعبيراً اسدّ ، الى التوسل
حتى باشكال البشاعة .

فرّق العقل في محاولاته هذه بين الجمال والخير ، او هو
على الاقل ، فرّق بين الشر والبشاعة ، فلم يجعل احدهما عتّة
والآخر معلولاً . واحل التناسق والالتواء الماديين على مستوى
واحد كوسيلة من وسائل التعبير .

وعلى كلّ فالواضح من التعريف الذي وصل اليه الفلاسفة
الاصوليون ان الجمال ليس كائناً بذاته ، بل كائن بالنسبة الى
الله ، وبالنسبة الى الانسان ، على ضوء الحقيقة والخير . والا
تساوى في الوجود الجمال والبشاعة .

الجمال هو التعبير عن الجهد الدائم بغية التقرب من الكمال ،
من الله . ومن وجد الله فقد وجد الجمال .

لبنان الشاعر

اما الشعر فله بالاضافة الى حكاية الجمال حكاية اخرى .

حكاية الشعر حكاية عقل يغفو وحاضر يموت على نعم يرف
هناك ، حكاية اتساع الحياة في مواكب من الصور والاختلة
والاحلام والعاطفة .

هنالك حالة شعرية ، هي الحالة التي تتعطل معها ، الى
حدّ ما ، القوى المدركة الواعية الحاسبة الراقمة المهندسة
المتاجرة العاملة السائسة المتفلسفة المتمنطقة المبرهنة المستقرية
المستننتجة الملاحظة المختبرة ،

حالة انعتاق النفس من كل المشاغل الدنيا ، وتكاثف
الحياة الروحية الى اقصى حدّ ، والاستسلام للاحلام ، والتأمل
في الصور التي يبتدعها الخيال .

فالشعر انما يعتمد اول ما يعتمد الصور ، متوجهاً الى
الخيال لا الى العقل . الشعري حقاً في اثر ما هو الصور
لا الافكار .

ولا يرد بان هنالك من القصائد ما تستمد قيمتها من
الفكر ، وبانها لا تقتصر على استحداث خيالنا ، بل على
إثارة تفكيرنا ايضاً .

نعم اني لاعرف ابياتاً لا تمت الى الخيال ، ولا قيمة
لها الا بجمال الفكر الذي تعبر عنه ، ولكن لا يمكن ان

صلاح لبكي

يخطر ببال ان هذه الابيات شعر - ولا اخطىء رأياً اذا
انا قلت انها ليست شعراً :

(على قدر اهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم . .)
(وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين الكبير العظام)

ان يكون الشاعر مفكراً في الوقت نفسه فلا اشوق ولا
امتع . اتنا لا نؤمن ببدا تقسيم العمل في الشؤون الفنية ،
ولا نصر على ان لا يكون الشاعر الا شاعراً . بل ربما
اذا كان اكثر تنوعاً صار اقل ارهاقاً ، واذا كان اكمل
أثر تأثيراً جمالياً اعظم . الافكار التي يجلي بها شعره تكسب
اياتها جمالاً اعجب ولكنها لا تجعلها شعرية اكثر .

وكما ان الشعر مستقل الى حد ما عن الافكار ، فهو
مستقل الى حد ما عن الصيغ الكلامية . ان للكلام قيمته
العظيمة عندما يراد التعبير به عن الافكار .

فالافكار المجرّدة لا تتحقق وتتجلى الا بالكلام . اما الصور
التي هي قوام الشعر ، فنحن لسنا بحاجة الى الكلام لتمثيلها .
الصور ان هي الا حالات نفسية حقيقية واقعية تطبق
الانفراد عن اللفظ الى حد ان الصعوبة ليست في عزلها عنه

لبنان الشاعر

بل في ايجاد الكلام للتعبير عنها . اننا لا نتكلم احلامنا .
تمرّ الصور ، فتشيع اعيننا ورامها ، ونحن صامتون هاثون
مسحورون .

لنأخذ ايّ أثر شعري . اذا اسقطنا منه كل ما يجب
التعبير عنه ليصح ويدقّ التفكير فيه ، واحتفظنا بكل ما
يكون مثله اسهل من التعبير عنه ، نكون قد احتفظنا
بالعصر الشعري .

كان شيار يقول : الجوهر لا شيء بنظر الفن . الشكل
هو كل شيء . ولكن العكس يكاد يكون الصحيح في الشعر .
الجوهر اي العنصر الشعري هو كل شيء . وليس العنصر
الشعري في بيت من الشعر وكأنما هو في اناء اتيق يكتسب
منه اناقته . الكلمات التي يجمعها الشاعر تنتهي العناية ليست
الا رموزاً يضعها تحت اعيننا ليحرك فينا بتفاعل محض نفسي
بعض التمثلات (Représentation) .

ومن هنا يصحّ القول ان القصيدة التي نقرأها ونطرب
لها (ونعيشها) ليست قصيدة الشاعر الذي نظم ، انما هي
قصيدتنا نحن . ولكن للالفاظ أهمية من وجه آخر ، من
وجه ان موسيقى الشعر تقوم عليها ، حتى لقد اسرف بعض
اصحاب المدارس الشعرية وحصروا العنصر الشعري بموسيقى
الابيات ، فلم يحسبوا لا للصور ولا للفكر ولا للعاطفة حساباً .

صلاح لبكي

لقد والله تجنوا على الشعر وامتهنوه وجعلوه زرياً في
الفنون ، بل وفرعاً لآخر . اذا حُصِرَ العنصرُ الشعري بموسيقى
الايات ، فما احقر ما هي هذه الموسيقى المتمتعة على الحرف
والتي لا تجرؤ حتى على مطاولة ايسط Melodie وما افقرها
الى جانب تلك التي تضيق السانفوني بها نطاقاً .

اذا كانت موسيقى الايات هي الشعر ، فوارحمناه للشعراء
من هميروس وفيرجيل والبحري والمثني وابي تمام ودانتي
وميلتون وشكسبير وراسين وغوتي وهوغو ولامرتين واضرابهم .
ان كل موسيقاهم لو جمعت بعضاً على بعض لما وازت مقطعاً
واحداً من (باستورال) لبيتهوفن ، ولا من ال (السانفوني
فانتاستيك) لبرليوز ، ولا من (تنهوزر) لفاغنر ، ولا من
(رابودي) لليست ، ولا من (سوناتا) لموزار .

قلت ان الشعر في اعماقنا الى حد ما ، في الحالة التي
اوحى بها الينا قصيدة الشاعر . قراءة القصيدة عمل شعري
والالواح التي يتخيلها القارئ والاحلام التي يجلبها انما هي
الواحه واحلامه ، اوحى بها الشاعر ايجاءً .

ولكن هذا القول لا يعني ان الشاعر مُعفى من امتلاك
ناصية الكلام ، ومن البراعة في التصرف به تصرفاً احذق من
تصرف الناثر به واغنى . ان الشاعر الذي لم تُسلم اللغة اليه
اسرارها لاعجز من ان يثير أية حالة شعرية .

لبنان الشاعر

ويبقى ان نعرف ما هو دور العاطفة .
لقد تشعبت الآراء . فمنهم من انكر على العاطفة صفتها
الشعرية واراد الشعر تمثيلاً وضعياً . من هؤلاء اربسطو وغوته .
ومنهم من جعل العاطفة كل الشعر .
والحقيقة هي بين الرأيين هذين .

بلى ، اذا انطوى الشاعر على نفسه لا ينشد غير آماله
وآلامه وحبه وياسه وقنوطه أملٌ واضجر وازهق ، حتى
ليبرر - مناكفة - رأي الذين يريدون الشعر مجرداً من العاطفة .
اما اذا اتسعت نفسه للدنيا وغمر بفيض من حبه الاشخاص
والاشياء ، فانه يرفع شعره ويكسبه سمواً : الشعر محبة .
وعلى كل فالاحساس المسرف عيب نادر لا يسبيء الى
جوهر الشعر .

وان اخش على الشعر فمن برودة العاطفة وتجميدها .
عندما تضعف العاطفة يفتقر الشعر . والشاعر الذي ينجح
في اخاد عاطفته يكون قد تخلى عن ابلغ وسائله . لقد يستطيع
عند الحاجة ان يستعويض عنها بغيرها من الحُصائص الشعرية .
انه اذا كان بالرغم من جفاف قلبه ذكياً حاد الذكاء قوي
الخيال مجنحه ، قدر على نظم قصائد رائعة الصور جليلة
التفكير . الا انها تظل مفتقرة ابدأ الى اشراق العاطفة

صلاح لبكي

وحرارتها ، الى ما يهز ويرقق ويحنن ، الى التي بدونها لا يكون الشعر كاملاً .

اني لأشك باحتمال وجود شاعر واحد ، يستحق هذا الاسم ، اذا كانت العاطفة متحجرة في قلبه . يستحيل اقضاء العاطفة عن تحديد الشعر . فهي عنصر من عناصره الجوهرية . العاطفة الاكثر عمقاً ورقة ولطافة ليست شعرية الا بنسبة تأثيرها على الخيلة واستثارتها الصور .

هوذا نحن وقد المنا الماماً بموضوعي الجمال والشعر ، نرى انه صار بوسعنا ان نخلص الى القول :
ان الجمال بالنسبة الى الشعر صفة .

فالشعر جميل وتعبير عن الجمال ، جميل وفقاً للتحديد الكلاسيكي الاصولي الذي عرفناه للجمال . ولعل الجمال عندنا يقترن بالشعر يكون قد بلغ إحدى أعلى قممه .

على ان هنالك من المنظومات ما هو عار من الشعر ، وهو الى ذلك جميل . ولكن ينبغي لنا ان نحاذر تسمية هذه المنظومات شعراً . فجهاها ليس مستمداً من شعرها ، بل من جمال فكرتها ، او من جمال تركيبها ، او من جمال موسيقاها . وهي لا ينسبها الى الشعر ، بالمعنى العام ، الا قوالها تلك التي تستخدم لنقل الشعر عادة . قد يكون

لبنان الشاعر

اصحاب هذه المنظومات مفكرين عبقرين ، وقد يكونون
محترفين من اتقنوا الصناعة واجادوا ، وقد يكونون اهل
جرس موهوب . لكنهم ليسوا شعراء . على ضوء هذا
الفرقان نستطيع ان نفهم اختلاف رأي كبار النقاد احياناً
حول قيمة بعض الآثار المنظومة ، اذ يعدّها فريق شعراً
حلالاً زلالاً ، وينكر عليها الشعر فريق آخر . ذلك ان
الخلاف انما يكون ، على معنى الشعر .

قلت في ما تقدم ان الجمالية الحديثة بعد ان فرقت بين
الجمال والحُير استباححت التوسل بشتى الوسائل للتعبير عن
الوان النفس ومكوناتها ، غير مفرقة بين جمال وبشاعة ، بل
ومتجاهلة وجود جمال وبشاعة .

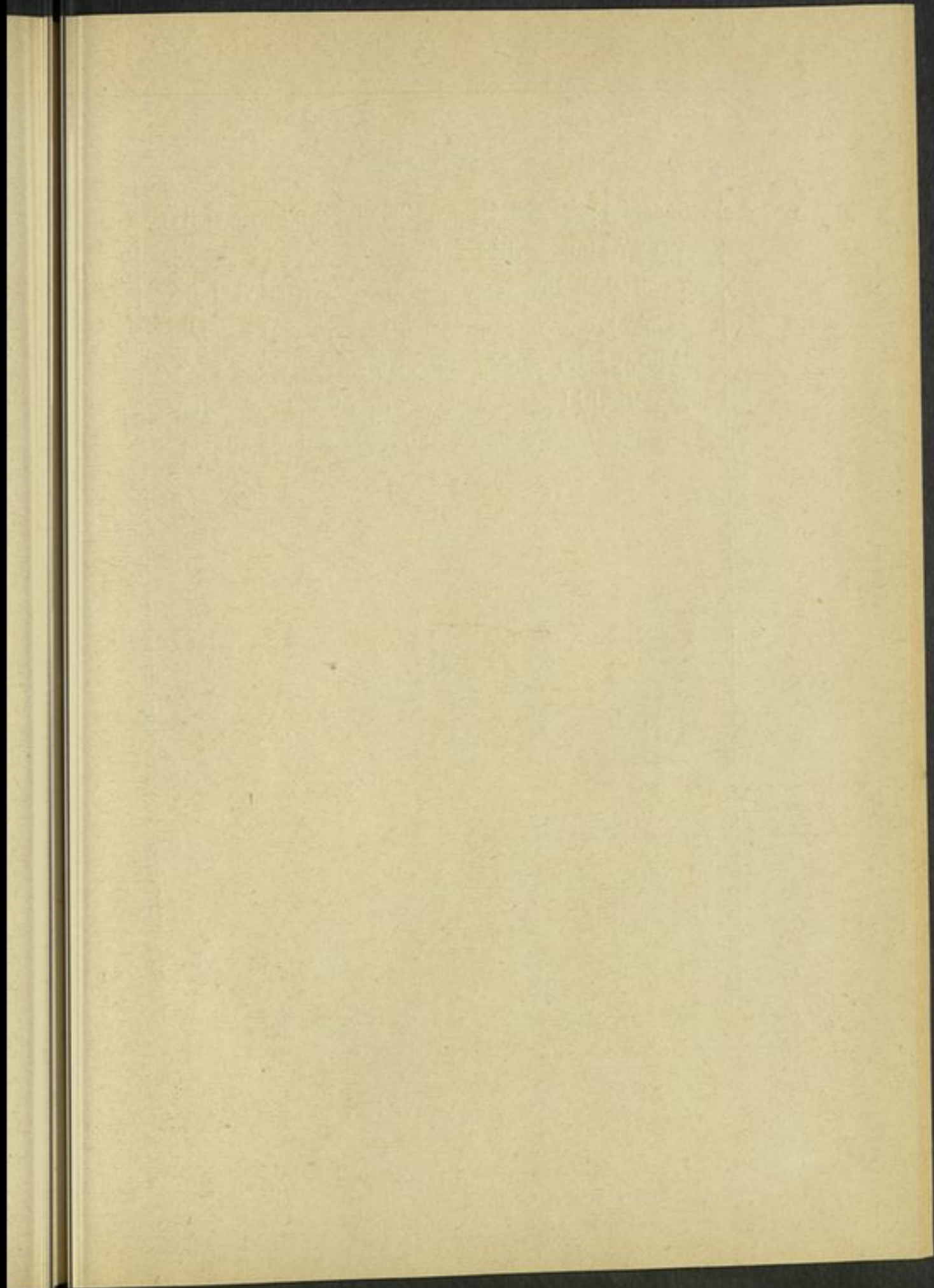
فما هي علة ذلك ؟

لقد تعب الانسان من الالم والموت والدماء ، تعب من
الآلة التي لا ترحم ، تعب من النظريات التي تجرده من انسانيته
لتضع بين يديه آلة القتل والدمار . فهو يعيش وسط الاحزان

صلاح لبكي

والدموع والعيول ، ولقد انعكس هذا التعب في آثاره الفنية ،
انعكس فيها كفرةً بالقيم ، كفرةً بالجمال ، كفرةً بالآثران ،
كفرةً بالانساق ، فراح يعبر في حنق عن العالم الظالم القاسي ،
بما يستحق من صور البشاعة . ولكن لا بدّ ان يقوده
كفره هذا الى كفره بآثاره التي تنعكس فيها صور هذا
العالم . ولا بدّ ان يعود يوماً الى صور الجمال فلا يبقى
من المسوخ والمكعبات والمشطحات الا ذكريات مؤلمة .





بَدْوُ الْبَهْمِضَاتِ

رافق الشعر العربي في لبنان النهضة الادبية من
بدايتها .

فكان لم يخط حرف عندنا الا على اسمه ولم تنفتح عين
على صفحة كتاب الا لبحث عنه في اصوله وفروعه في
تمثله وتطوره .

والشعر في لبنان ليس ديناً للغة عليه . كرة الى ابعد
من مئة وخمسين سنة توضح كم كان لبنان دائماً ذلك الشاعر
ذلك المسافر عبر الذكريات والفكر ، عبر الاحاسيس والعواطف ،
عبر النغم والصور ، عبر الاعماق والاسرار ، عبر الاعالي وما
وراء الاعالي ، عبر الموصوف وما يفوق الوصف ، عبر الانسانية .

غنى لنفسه وللعالم ، بلغته وبلغة كل العالم . لم تحمل اشعرته
ولا قوافله الى الأفاصي البرفير والارجوان والحزف والدمى
وحسب ، بل نقلت فكراً وفلسفات ، نقلت على الاخص
انغاماً واغانياً وصوراً وألواناً واضواء ، وتهادت بالنسمة
البليبة المتغلغلة في اعماق النفس البشرية فهاج كل لحن وعلم

صلاح لبكي

كل حين ، واطلق كل نعمة معتقة في مطاوي الارواح ،
مستحشاً على البوح ، مرشداً الى التعبير بانافة ولطف وقوة .

ولن اقف وقفة طويلة على التاريخ فاسمي الشعراء اللبنانيين
الذين نبغوا قديماً فنظموا في كل لغة .

لا اتحدث عن انطيباتر الصيدوني الذي كتب باليونانية
في عهد الديكتاتور سيلا في الجيل الاول قبل المسيح .
(وقد بقي منه بعض قصائد فكاهية محفوظة في مجموعة
الانتولوجي اليونانية) .

ولا عن دورته الصيدوني الذي ولد في اوائل الجيل
الاول قبل المسيح وهو الشاعر الذي وضع ملحمة عن اسرار
وبدائع الفلك .

ولا عن هرمايوس البيروني الذي اشتهر في الجيل الخامس
بعد المسيح ولا عن الشعراء والفلاسفة والعلماء المتحدريين من
اصل لبناني .

ان الكثيرين من الادباء والشعراء اللبنانيين والسوريين
الذين عبروا باليونانية واللاتينية اشتهروا عند الافرنج بهاتين
اللغتين . ولم يكن يدري غير المحققين انهم منا ولنا ، ولم
يذكر شيء عنهم الا في المؤلفات اليونانية واللاتينية او في
ترجمة آثارهم الى اللغات الاجنبية .

لبنان الشاعر

هذا فضلاً عن الذين نظموا بلغة الشعب التي كانت باقية
على اصلها الآرامي السرياني ، كما هي حتى الآن ، في بعض
قرى سورية مثل معلولا .

فلبنان اطلق دائماً من اجوائه الشعراء الذين حلقوا في
كل سماء واطفوا على اللغات التي عبروا بها مجدداً مضافاً الى
اجادها .

فما هو هذا السر ؟

لماذا انطلق دائماً من جبالنا ونشأ في سهولنا وعند شواطئنا
شعراء كما تبوح الورد وينمو اليلسان ، او كما تعصف
العواصف وتشتع الاضواء .

ان لفي طبيعة لبنان من التوازن والاتساق والجمال ما
يفيض بعضه على النفوس ويحرك القلوب . لقد قام منذ
ابعد العصور بين اللبنانيين وطبيعة بلادهم صداقة حميمة . فهي
تغدق وتشتع وتلون وتردهي ، وتشمخ حتى النجوم هنا ،
وتنبسط هنالك ، وتغور ها هناك الى اعماق الارض ،
وتداعب الشيطان امواج بحرها ، وتثور صاحبة محطمة وتتم
ناعمة حنونا ، وتؤمن في ذروة غضبها مفرغاً في وادٍ او ماجاً
في سهل ، او ملعباً عند شاطيء . فكأنما هي تعرض للناظر
رسوماً ، وتنسج صوراً ونوشي رقاعاً . هنا اشباح وظلمات
وجلال على مقربة من بهاء وسنى وسناء وطمانينة .

صلاح لبكي

هي تغدق وتشع وتلون ، وهم يبثون ويفزعون اليها
ويجنون ويعبدون . فترتفع القلوب انعاماً وتنطلق العقول
استنطاقاً عن المكنونات والبواعث والعلل .

ولكننا قبل ان نتقدم الى ما يعنيننا من بحث عن ماهية
الشعر العربي الحديث في لبنان لا بد لنا من لفتة الى العوامل
التاريخية التي سبقت عصري البعث والنهضة ، ونحن نعني
بابعث الدروس التي اعادت الى العربية رونقها وبالنهضة حركة
التطور الفكري .

هنالك حدثان هامان اثرا في مجرى الحياة الفكرية في
الشرق العربي كله ، وما الشعر الا ناحية من هذه الحياة .

اولها عودة تلامذة مدرسة رومة المارونية التي كانت قد
انشئت سنة ١٥٨٤ الى لبنان .

وثانيها مجيء نابليون الى الشرق .

ومعنى الاولى ان لبنان قصد الغرب فاحضره الى الشرق
وهذه البادرة تكررت يوم ذهب الامير فخرالدين المعني الى
توسكانا فتعرف في فلورنسا عاصمة الحضارة الغربية يومذاك الى
نسق المعيشة والى الفن والى القصور وحمل الى بلاده الرغبة
في محاكاة تلك الحضارة العظيمة .

ومعنى الثاني ان الغرب عاد فقصد الشرق .

لبنان الشاعر

ولا يضير لبنان كونه قصد الغرب قصدا . فلبنان لم
يكن يوماً منغلِقاً على نفسه ، ولا فهم القومية الا انفتاحاً
والا علائق فكرية وحضارية يقيسها مع العالم ولعل اجمل
تحديد لرسالته هو هذه الايات التي وردت على لسان اورب
في قدموس لسعيد عقل :

.....
ولبنان عهد
ليس ارزاً ، ولا جبلاً ، وماء ؟
وطني الحب ، ليس في الحب حقد .
وهو نورٌ فلا يضل : فكداً ،
ويَدٌ تبعد الجمال ، وعقل
لا تقل : « امتي » ، وتسطو بدنيا ؛
نحن جارٌ للعالمين واهل !

وكان من أمر هذين الحداث العظيمين على تطور النهضة
الفكرية في الشرق انها الهبا الشعلة في لبنان وفي مصر .
التهبت في لبنان فنهض اللبنانيون الى تشييد المدارس
وتأسيس المطابع ونشر المخطوطات وانشاء الصحافة .
ولا ننسى ان مدرسة عين ورفه كانت تعلم في القرن
السابع عشر واولائل الثامن عشر ست لغات اجنبية ولا ان

صلاح لبكي

(الاخبار) التي انشأها خليل الحوري هي اول صحيفة اخبارية في الشرق العربي ، ولا ان مطبعة دير قزحيا طبعت الكتب العربية بالحرف الكرشوني ، ولا ان مطبعة عبدالله زاخر طبعت منذ ١٥٠ سنة اول كتاب عربي لبناني بالحرف العربي ، ولا ان للبنان يد السباق في نقل الفكر العربي الى الشرق وفي نقل الفكر العربي الى الغرب ، فالخاقلبي والسمعاني والحصريوني ترجموا بعض الفلاسفة العرب الى اللاتينية .

وفي ما كانت العراق وتركيا وفارس تتنازع ابن سينا فتدعيه العراق لانه ألّف بالعربية ، ويدعيه الفرس لانه فارسي المولد ، ويدعيه الاتراك لاصله المغولي ، كان المطران ابي كرم اللبناني يترجم العينية الى اللاتينية فيعرفه الى الغرب .

ونحن نعلم ان المطران بولس عواد قد عربّ الخلاصة اللاهوتية وان المطران ابي كرم قد عربّ ايضاً ردود الاكوييني على ابن رشد ، وان سليمان البستاني ترجم الالياذة وان عبود ابا راشد ترجم المهزلة الالهية ، وان حركة النقل لا تزال مستمرة .

اما في مصر فقد ورث بلاط محمد علي التركة النبوليونية ، ورث الفتحين الثقافي والحربي . ولم تكن الشعلة الثقافية فيها اقلّ اضطراباً منها في لبنان .

ورثت مصر المدرستين اللتين انشأهما الفرنسيون لتعليم

لبنان الشاعر

ابنائهم والمطبعة ودار المطالعة والرسوم التي تمثل الشخصيات العربية ، كما ورثت المصانع والمعامل ، وكان لا بد من أن تؤثر رؤية هذه المحدثات وتبعث على التفكير في الوسائل الموصلة الى مثلها . ثم ما لبثت مصر ، بفضل الحرية التي كانت تتمتع بها ، ان اصبحت موئلا للاحرار . فاذا هي موطن اللبنانيين الثاني ، اليها يلجأون ، ومنها ينطلقون ، ويقسمون والمصريين هم النهضة ويضطلعون معاً بأعبائها .

واما الذي يعيننا الآن فاننا هو هذا الشعر العربي الحديث .

وهل في لبنان غير شعر عربي حديث .

- لا نعرف قبل قرن ونصف تقريباً شعراً عربياً للبنان .

كانت السريانية لغة اللبنانيين . ولما اقتحم معاوية لبنان امتنعت عنه الجبال لوعورتها ، فلم يستولِ الا على السهول .

ان ارتباط الساحل بدمشق الاموية مهّد طريق التوغل للغة العربية في الجبال بعد ذلك لما بينها وبين الساحل من اتصال ، ولما بين العربية والسريانية من التشابه بالقربى . ولكن هذا الانتشار ظلّ بطيئاً الى ان عاد الحكم في لبنان بعد الفتح العثماني الى المعنيين ثم الى الشهابيين .

- وعلى الرغم من الحركة العلمية التي بعثها الامير فخر الدين المعني الكبير وشجعها بسخاء فاننا لا نجد بين معاصريه شاعراً لبنانياً واحداً نظم بالعربية .

صلاح لبكي

ولكننا نقع على اول الشعراء في عهد الامير بشير الكبير؛ فقد وافق وجود الشعراء الحوري نقولا الصايغ وبطرس كرامي ونقولا الترك والباس اده وناصيف اليازجي ابتداء النهضة العربية في القرن التاسع عشر، فكأنما هذه النهضة قد انطلقت من لبنان ولاسيما بفضل الشيخ ناصيف اليازجي .

ما قيمة شعر هؤلاء الشعراء ؟

ان ديوان نقولا الترك يحتوي على نحو خمسين قصيدة ومقطوعة تتناول حقبة حافلة بالاحداث من تاريخنا . فتصورها سياسة وادارة واجتماع وثقافة ودينًا واخلاقًا وعادات وتقاليد فوق ما تشير اليه من احداث طبيعية وغرائب مناخية وكوارث . فالديوان ذو قيمة تاريخية لا يستهان بها . إنه يُطلعنا على اسفار الشاعر بين مصر ولبنان ، وعلى اقامته في دير القمر ، وتنقلاته في المدن والقرى مادحاً الامراء والمشايخ . كما نجد فيه وصفاً للاحداث الخاصة في حياة الشاعر العائلية : خلافته مع ابن اخته جريس عايده ، ولادة ابنه فتح الله ، سقوط سقف بيت المؤونة وانهار القناطر في داره (وفاة برزوته الشعراء) ، ولادة حمارته ، إطلاق لجنته ، اصابة احدى عينيه بألم ، اصابته بالفالج [فبات ملقى طريحاً غير مقتدر على القيام ولا رجلاه تنتصب] الا ان قيمة الديوان الشعرية دون قيمته التاريخية . فشعره لا يسمو في شيء على أثر التقليد

لبنان الشاعر

المتبع في عصور الانحطاط بل قد يُقَلَّ عنها قوة سبك وشدة ضَبَط، ولو ازدهى احياناً بالصور الطريفة والوصف المبتكر. لقد ظل الترك كما يقول الاستاذ فؤاد افرام البستاني شاهداً عصر جليل، دقيق النظر، مرهف الشعور، صائب القياس، ولكنه سيء التعبير .

•

وما انتصف القرن التاسع عشر، حتى لاحت تباشير النهضة، فارتفعت لغة الشعر، واستحكمت نظمه وانجلت ديباجته. غير انه، وقد حاول الشعراء محاكاة الاقدمين، ظل نسيجاً على منوالهم. اساليبه اساليبهم واغراضه اغراضهم. فمن استهلال بالغزل وتخلص الى المدح، ومن وصف الطلول والابل الى ذكر اماكن الأعراب في البادية، الى مشاركة في الاستعارة والتشابه، الى توشية لفظية وتزيين. وزعيم هذه الطبقة من شعراء البعث هو ولا مشاحة الشيخ ناصيف اليازجي .

عرف الشيخ ناصيف جميع شعراء العرب أثناء أبحاثه العديدة في فنون الادب. وأعجب بالمتنبي وفضله « كأن المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الارض »، « وكانني قاعد في قلب المتنبي ». فتأثر به وحاكاه في قصائده .

صلاح لبكي

من يسمع مطلع قصيدته في مدح أسعد باشا ، قائد جيش
البلاد العربية :

بناء العلى بين التنى والبوارق
على صهاوات الخيل تحت البيارق
وشه سر في العباد وانما
قليل محل السر بين الخلائق
يقلب هذا الدهر احوالنا كما
تقلب فينا لاحقاً اثر سابق

او من يسمع قوله :

لولا التفاوت في الاخلاق والادب -
تساوت الناس في الافذار والرتب

او من يسمع :

لكل مصائب الدنيا خصوص بـ
ه افتقرت وللموت العموم

او :

انما نحن في اختلاف عقول
مثما نحن في اختلاف وجوه

ولا يشعر بروح المتني طاغية على المعنى والنبرة
والحرف .

لبنان الشاعر

فاليازجي صورة مصغرة عن المتنبي ، صغرت فيها
المحسنُ وقلّ الابداع كما صغرت السينات وقلّت السقطات .
الا ان ناصيف اليازجي لم يتأثر بالمتنبي وحسب بل بالانخطاطيين
ايضاً وبالعلماء . اذ ينبغي لنا التذكير بأن معارفه لم تقتصر
على فنّ او على علم ، بل تناولت اللغة والمنطق والطب
والفقه والموسيقى جميعاً ، فاذا بشعره ينحطّ احياناً الى السجع
من التلميحَات الصرفية والنحوية والبديعية والعروضية .

وقطبت عند زجر الصب حاجبها
لايتها تعهد التأكيد بالتوث .

او :

ما زلت مستنداً اليك محدثاً
فكأنني خبر وائت المبتدى

او :

ضربتني فألمت لا كضرب دار في النحو بين زيدٍ وعمر

او :

حباني على بُعد المدى برسالةٍ
تناولتها بالقلب لا بالاصابع

منعت انصراف العين عنها تصيباً
كما حال دون الصرف بعض الموانع

تلميحاً الى قواعد الصرف والنحو .

صلاح لبكي

أوفى وزاد على القديم حديثه
كصناعة التخمين للشعراء
تلميحاً إلى العروض .

ولم يكن هذا الانحطاط على ما للشيخ ناصيف من ترسخ
في اللغة ، ومن احاطة بكل غوامضها ودقائقها ، ومن وقوف
على خصائصها وتراكيبها ، نتيجة عقم أو قصور ، بل كان
مقصوداً ملازماً لمفهوم الشعر بنظره .

اجل الشعر ما في البيت منه
غرابة نكتة أو نوع لطف .

فهو إذاً على رأي الذين سبقوه من علماء اللغة والبيان
يرى في التلميح والاشارات إلى فنون الادب 'نكاتاً غريبة
جميلة وفي التلاعب اللفظي نوعاً لطيفاً من انواع البديع .

ولقد برز الاقدمين بما نظم من الالغاز والاحاجي وبما
سبك من القصائد العواطل وعواطل العواطل والحيفاء والرقطاء
والمعجزة والملمعة وما ضمنها من امثلة العكس والطرده ، وبما
رتب من التواريخ المفردة والمزدوجة .

هل كان الشيخ ناصيف يضيق بهذه الالوان التي حمل نفسه
عليها وهي ليست من طبعه في ما يلوح ؟ كان يضيق بها

لبنان الشاعر

أحياناً عندما يعود الى سجيته والا فما باله يقول متحدثاً
عن نفسه :

حزنت لذل الشعر حتى ايقنت
بماته ففسر بلت مجداد
ولقد هممت بتركه لو لم تكن
غلبت عليّ صباية بفؤادي
ما كنت اعرف قبل معرفتي به
نفسى فكان كتوأم الميلاد
قد قلّ في هذا الزمان رواجه
حتى ابتلى ، مع رخصه بكساد
ولئن تكن كثرت معايبه فقد
سترت عليه قلة النقاد

ولكن الشيخ ناصيف برغم هذه الانتفاضة ظلّ محافظاً
كل الحفاظ على تقاليد الشعر العربي القديم ، لقد نظم في
الحكميات والمراتي والتعازي والمدائح .

الا ان التقدم في عصره ، واللغة في انحطاط والقرائح
جامدة متججرة ، ما كان يعني الا رجوعاً الى الاقدمين والى
محاكاتهم في اساليبهم .

وبا ما ابعد الشقة بين لغته وبين لغة نقولا الترك وبطرس
كرامه وغيرهم من معاصريه حتى ليخيل ان الشعر معه لم

صلاح لبكي

يتطور تطوراً بل قفز قفزاً . اذ بينا هو عندهم كناية عن كلام مضطرب دخيل مختل الموازين احياناً اذ به يستوي معه خلقاً سوياً في لغة عربية صافية متينة ركيته تضاهي لغة الفحول من ادباء العربية .

ونفضت في القسم الثاني من القرن التاسع عشر فئة من الشعراء تتلمذت على الشيخ ناصيف وعلى تلاميذه . رأت في الشعر ما كان يراه ابن قتيبة ، في كتابه « الشعر والشعراء » حيث يقول ما معناه ملخصاً : « تدبرت الشعر فوجدته اربعة اضرب ، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا ، فاذا فقتته لم تجد هنالك طائلا ، وضرب جاد معناه وقصرت الالفاظ عنه ، وضرب تأخر لفظه وتأخر معناه » .

او ما كان يراه قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى كجد قول النجاة النحو علم بأصول تعرف به حركات اواخر الكلمات . او ما كان يراه ابن رشيق في العمدة :

اللفظ جسم روحه المعنى ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعمور وما اشبه ذلك ، من غير ان تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان

لبنان الشاعر

للفظ من ذلك أوفر خطر كالذي يعرض للأجسام من مرض
بمرض الأرواح .

أو ما علمها إياه الشيخ في نقطة الدائرة تحت عنوان ماهية
العروض والشعر : « والشعر كلام يقصد به الوزن والتقفية . »

وأطمأنت إلى علمها هذا وراحت تباري الأقدمين بحرف
ريقتها على اللفظة والمحسنة اللفظية وجودة الصياغة بل راحت
تغزو الأقدمين غزواً في أساليبهم ومواضيعهم وصورهم
وتشابههم ، غير حافلة بفواصل الزمن ولا بتطور الحضارة ،
غير آبهة بالإنسان ، مشبعة عما يحتاج في أعماق النفوس أو
عما يقع تحت الإبصار . مدائحها مقفرة إلا من المبالغات
ومراثيها وحكاياتها إلا من تكلف الحزن ، وغزلها تثرثرة على
الشوق والحنين وكلام على عيون البقر وتحرق بلا حرارة على
تفاح ورمان وعناب وغصن مياس .

ولا أقول إن هذه الطبقة من شعراء القسم الثاني من
القرن التاسع عشر لم توفق في ما حاولته من مجارة الأقدمين
وفي ما جعلت منه موضوع فخر لها واعتزاز . كلما اردت
هو أنها على العكس قد بلغت الغاية في فقزتها إلى الوراء
متجاوزة ماضيها اللصيق بها المغمور بالظلمات حتى لقد سيطرت
عندنا في قلب القرن التاسع عشر كوكبة خليط من فرسان
الجاهلية وصدر الإسلام والعباسيين والانحطاطيين .

صلاح لبكي

في هذه الغمرة من الضوضاء والفرقة ، في زحمة الانتاج الشعري المتدافع اجساماً بلا روح ، وفي حومة الدواوين المتراكمة نسخاً مطبوعة عن نسخ منقولة او مخطوطة ، في وسط هياكل الايمان المطلق والاستسلام التام لمفاهيم الشعر ،

وبينا الحرب سجال في اوربا تدول فيها دولة الرومنطيقية وتنهض البرناس ثم الرمزية ؛

يقف العالم الشيخ ابراهيم اليازجي ليتساءل وحده ، وقد أدرك ان نهضة الشعر لم تستوف مقوماتها ، وانها لم تتجاوز حد الاجترار ، عن ماهية الشعر .

هل هو الكلام الموزون المقفى فيقول : بين ان هذا من التعريف الذي يستفاد منه تمييز الشعر من النثر دون شرح ماهية الشعر وبيان حقيقته .

ويقول ان المستفاد من اقوال ادباء الاعاجم في هذا المعنى ان المرجع في تمييز الشعر من النثر ، هو ما يحدته التأثير في النفوس والتسلط على الوجدان .

ثم يعرض لاختلافاتهم على عامل هذا التأثير فيدحض رأي القائلين انه ما يرد فيه - اي في الشعر - من اصناف المجاز والكنائيات ، ورأي القائلين انه ما يقع فيه من المعاني المستنبطة ، ورأي القائلين انه ما يبنى عليه من الوزن الشبيه بالابقاع ،

لبنان الشاعر

وينتهي الى هذه النتيجة :

« والذي يظهر لنا ، والله اعلم ، ان التأثير في الشعر يعود الى اجتماع هذه المعاني كلها . »

غير ان هذا التدقيق في التعرف الى ماهية الشعر لم يشغل شعراء او اخر النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولم يظهر له اثر بين في شعرهم . بل ظلّ الشعر في جملة بعيداً عن المجرّدات لا يخرج عن حدود المادة المرئية . عناء من الحضارة أكثر ما عناء وصف المظاهر العمرانية .

وبرغم استحثاث المعلم بطرس البستاني الى الاقتداء بمن تقدموا في مضار المعرفة والفنون حيث يقول :

« وكما ان الافرنج لم يستخفوا بأداب العرب في ايام جهلهم لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب ، كذلك لا يلبق بالعرب ان يستخفوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجية . فان شعراءنا استبدلوا من وصف الجمل والحسان والثور والذئب والغزال او من وصف القصور والحدائق وصف الباخرة والقطار . »

فنقرأ لالياس صالح وصفه للباخرة التي حملته الى مصر سنة ١٨٩٥ :

صلاح لبكي

تلك السفينة باسم الله مجراها
على دموعي مسراها ومرساها
تجري وفي قلبها النيران موقدة
مثلي كأن هوى الاوطان اشجاها

ونقرأ لتامر الملائك :

لا الارحبي ولا سليل الغيد
ادناك من بردى غداة العيد
حملتك انقاس البخار ثيرها
لهوات متقد الغليل عميد
حران صاد غير ان شفاءه
بالنار لا بالسلسل المورد
عالي الجدار من الصفيح مللم
كالحصن من زير الحديد مشيد
القاطر الناري قيد الطرف في
غلواء ثورة شوطه المرید
المستعز على اليفاع بمازج
نار تسعر غير ذات نخود

لبنان الشاعر

والمستقل على قمي 'خقل'
من نجره تعبـ الوشائج سود
يجزو الرياح متى ترامى الغلي'
في 'حجرات غور' انونه الاخدودي
كالبرق تصعبه البروق مظللاً
بغمام ليلـ دُخانهِ الممدود
يجدو له حادي اللظى ويقوده
فاعجب له من قائد ومقود
يقناد معترماً قطارَ حوافل
'عجلاً ثقلاً لم تكن بالقود

ولا يعني ما نقوله ان شعراء أواخر القرن التاسع عشر
انقطعوا على وصف المظاهر المادية في الحضارة الحديثة . بل
منهم من حمل على المفاسد الاجتماعية التي انتشرت مع انتشار
الحضارة الغربية بين ظهرانينا .

يقول الاستاذ انيس الحوري المقدسي : (الاتجاهات
الادبية في العالم العربي الحديث) المفاسد الاجتماعية التي يندد
بها الادب نوعان - نوع يعده من المحرمات كالقمار
والمسكرات والتخدرات والتتهتك الجنسي ونوع يعده من

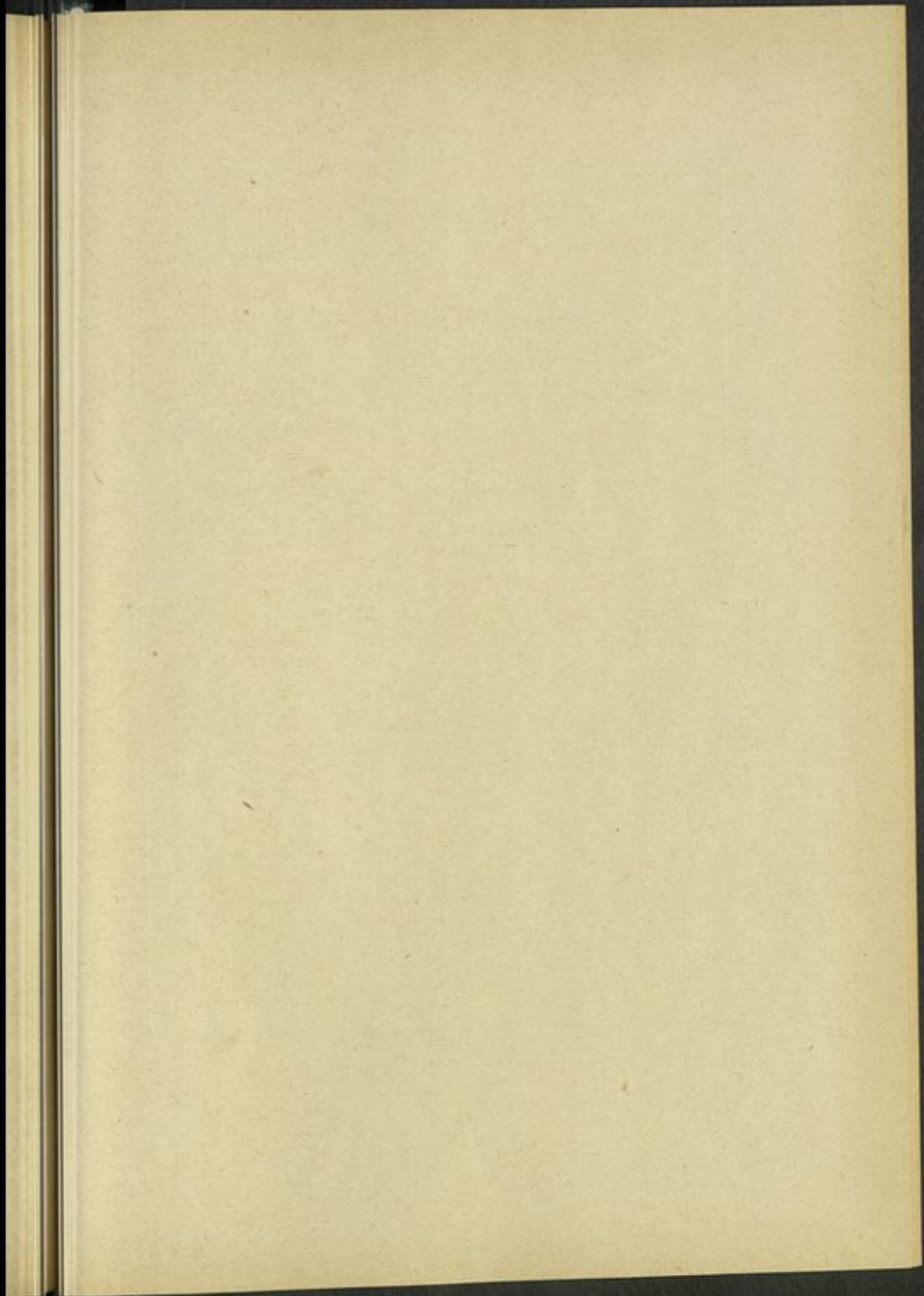
صلاح لبكي

العادات المستهجنة كالرقص والسباحة . المختلطة والتطرف في بعض الازياء .

وينبغي لنا القول ان النوع الثاني الذي يسميه المقدسي العادات المستهجنة كالرقص والسباحة المختلطة والتطرف في بعض الازياء لم يروع الشعراء اللبنانيين وقلما نفع على قصيدة في الموضوع .

ان الشعر العربي في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يكاد يكون خلوأ من شعر المواعظ .





الشعر اللبني
في
مطلع القرن العشرين

كان الشعر اللبناني في أواخر القرن التاسع عشر لا يزال شعراً مقلداً ، هم الشعراء فيه ان يجاروا الأقدمين في ما ينظمون من مدائح ومراتٍ ووصف .

لكن الحوادث السياسية التي تعاقبت علينا وانتشار المدارس والهجرة تركت في الشعر اثرأً بليغاً .

فبعد سنة ١٨٤٥ زالت الامارة من لبنان ، وقام اللبنانيون في كسروان بحركة شعبية ضد الاقطاعية كانت تغذيها البطيريركية المارونية . ثم وقعت حوادث سنة ١٨٦٠ ، وتلاها ضمانه الدول لكبان لبنان ؛ لكن النضال بين رغبة السلطنة في نحو امتيازات الجبل ونزوع احاراره الى استقلال اوسع ، والى الحد من سلطة المتصرف ، والى توسيع صلاحيات مجلس الادارة ، أخذ يشتد يوماً بعد يوم .

فلما عرضت حكومة قتيان الاتراك على لبنان ارسال نواب عنه الى « المبعوثان » ، وقبل مجلس الادارة العرض العثماني ، ردة الشعب على المجلس بحركة مقاومة عنيفة اكرهته على استرجاع قراره بقبول العرض التركي .

صلاح لبكي

ونشأت الجمعيات المشتركة بين أبناء الجبل وأبناء الولاية في بيروت ودمشق وغيرها من الاقطار العربية . ومن العبث الفصل بين الحركات الوطنية في لبنان وسائر الاقطار العربية - اذ كان القوم يشعرون بوحدة المصير ، وبوجوب توحيد الصفوف بوجه العثمانيين . والأدب العربي ، وهو الأداة المشتركة بين جميع هذه الاقطار ، لم يتأثر بمساعي اللبنانيين من دون اخوانهم العرب ولا بمساعي أبناء الاقطار العربية من دون لبنان ، بل تأثر بمجموع هذه النهضة الوطنية .

ولا بد من الاشارة الى ما كان من أمر يوم قدم الاصلاحيون في بيروت برناجمهم الى واليها واعتقلتهم السلطات ، اذ صدرت الجرائد موشحة بالسواد ، واقفلت المدينة الى ان أفرج الوالي عن المعتقلين .

وعقد المؤتمر السوري في باريس ، مطالباً لسورية بالحريات السياسية وبالادارة اللامركزية ، ولحكومة لبنان بالموارد التي تسمح لها بان تنهض .

تلك الآمال التي كانت تضح بها قلوب القوم تفجرت خطباً وقصائد ورقصاً وزغرودة في الشوارع يوم جاءت البشرية بسقوط العهد الحميدي .

ثم ان النضال كان نضالاً مزدوجاً : نضالاً ضد العثمانيين ، ونضالاً ضد المتطرفين الذين كادوا ان يفسدوا المقصد ، اولئك

لبنان الشاعر

الذين « ارادوا مقاتلة التعصّب الديني فتعصّبوا في قتاله ،
وارادوا العدل فلم يعدلوا في طلبه ، وارادوا النظام فاختلفوا ،
وارادوا المساواة فميزوا نفوسهم ، وارادوا الاخاء فعادوا ،
وارادوا الحرية فتقيّدوا » .

في هذا الجو المزدحم حتى لتكاد تتفتت سماؤه بالشوق
الى الحرية ، الى الاستقلال ، الى محو التعصّب ، الى العدل ،
الى النظام ، الى المساواة ، الى الاخاء ، الى اقامة مجتمع
اكمل ، نظم شعراؤنا في مطلع القرن العشرين .

وكان قد سبق ترسخ هذه الروح ترسخ في اللغة واتصال
بالفكر الغربي عن طريق المدارس والترجمة .

وبعد ان كان التعليم في الأديرة والمساجد ، وفي الاناطش
والزوايا ، انتشرت مدارس المرسلين كمدرسة عينطورة ،
ومدرسة القديس يوسف ، والمدرسة الوطنية ، والمدرسة
السورية الانجيلية ، ومدارس الجمعيات الاهلية كالمدرسة
البطريركية ، ومدرسة الثلاثة الاقمار ، ومدرسة الحكمة ،
تسلح العقل بادوات المعرفة والتفتح على تيارات العلم والادب
والفن بل على مجاري الفكر في مختلف مجالات نشاطه : في
العلم والسياسة والاجتماع ، يوم اوربا بركان يتأجج بيقظة
القوميات . وجاء الانتداب فاحتلت اللغة الفرنسية وآدابها
المقام الاول عندنا .

صلاح لبكي

كان الادباء المقلدون يبصقون آخر اسنانهم ، على حدّ تعبير الياس ابي شبكة في « روابط الفكر والروح ، بين العرب والفرنجة » ، حين احتلّ مكانهم ادباء اقوى شخصية وأسلم بياناً وأرقى ثقافة ، ولكنهم ناقلون او مقتبسون .

غير ان هذا النقل هو الذي أثار في الادب العربي اللبناني تأثيراً بالغاً وهو الذي قول الياس ابي شبكة ان هؤلاء الادباء كانوا اقوى شخصية وارقى ثقافة .

فمارون النقاش ، مؤسس فنّ التمثيل في العربية ، نقل مسرحية « البخيل » لموليير . ونقل نجيب الحداد مسرحية « غرام وانتقام » عن « السيد » ، ومسرحية « حمدان » عن « هرناني » ، وقصة « غصن البان » عن قصة « رافائيل » للامرتين . ونقل اديب اسحق « اندروماك » . وسليم النقاش المسرحيات الفرنسية الراقية . وانصرف طانيوس عبود الى تعريب قصص ثلاثم ذوق الجمهور . وعرب فرح انطون « بولس وفرجين » ، و« الكوخ الهندي » ، و« أتالا » ، و« تاريخ المسيح » وغيرها من المؤلفات الفرنسية المشهورة . فكان لنا من ذلك ، في أواخر القرن الماضي ، وفي مطلع القرن ، فئتان من الشعراء :

فئة المحافظين الذين حرصوا على لغة العرب في مفرداتها وصيغها واساليبها ، وعلى معالجة مثل المواضيع التي عاجلها

لبنان الشاعر

شعراء العرب في جاهليتهم واسلامهم الا ما ندر من وصف
مخترعات الحضارة .

وفئة أخرى تأثرت ، الى جنب حرصها على اللغة ومفرداتها
واساليبها ، بواقع الامة وبمناحي التفكير العربي .

فتامر الملائط شاعر جاهلي السبك والنفس ، يقول فيه
جامع مختارات الزهور انه بليغ ، فحل ، جاهلي الديباجة ،
سما به شعره الى طبقة اكبر الشعراء :

جئتُ الاخير ولو اني سبقت لما
ابقيت للناس الا انهم اولوا

وقصيدته ، في وصف صراع خيالي بينه وبين عمر ، واحدة
من ثلاث في الادب العربي :

قصيدة بشر ابن عوانة :

أفاطمَ لو شهدتِ يبطنِ نخبتي
وقد لاقى المزبرُ اخاك بشرا

وقصيدة المتنبي :

في الحدّة ان عزم الخليلط رحبلا
مطرٌ تزيد به الحدودُ نحولا

صلاح لبكي

واخيراً قصيدة الملاط ، التي لا تقل عن شقيقتها روعةً
وصفٍ ماديٍّ ملموسٍ ولا ديباجةً وفخامةً وقوةً :

وليلٍ تكاد الكفُ تلمسُ جِلدَه
ترامت به الظلماتُ سُدلاً على سدلِ
سريتٍ به لم استخرُ غير صاحبِ
من الهند يرضى كل شيءٍ سوى خذلي
ترى الجواهر الهندي في متن نصله
يدب ديبب النمل في مدرج النملِ
بيهاء لم اسمع بارحاء جوهها
سوى اطحل يعوي لعارويةً طحلِ
وارقط رابي المتن مسعصد الشوى
كقنطرة الباني على عمُدِ عُبُلِ
خفيف ضبور الوعث تنفي متى عدا
يداه الحصى كالمستطير من التنبُلِ
هربت له شدقانٍ مثل مغارة
ووجهٌ عليه شارة الغدر والحتلِ
مقلطح ما بين المسائح باسلِ
باسجر حلاق وكالحقة عصلِ
فزجر لما استاف ربحُ فريسه
وزف على المعزاء في خفة الرألِ

لبنان الشاعر

فقلت رويداً يا ابا الابرود اتئد
 فلم يك قوت النمر صمصامة مثلي
 فجاشت به جياشة الحقد ما ارعوى
 واقبل مثل السهم مرجله يعلي
 فصادمه في همه النجم ماجد
 يرى ان عيب العار شر من القتل
 نمر فاستأسدت لكن بأزق
 على غير ضم المرو ما وقعت رجلي
 هويت عليه بالمهند فالتقى
 بصراء ابلت بالجزاز كما يبلي
 فلم يبق الا مقبض النصل في يدي
 فقلت لزنددي انت امضى من النصل
 ولم تك الا لحة ثم ضمنا
 عناق كلانا فيه معتنق الصل
 فملت عليه آخذاً بمقذته
 بكف واخرى بين لحييه كالكبيل
 ومنا بارحاء الفلاة زماجر
 دوي هزيم الرعد في العارض الوبل
 فما زلت ان فرجت شذقيه فارقي
 وخار خواراً هز مرتكز السهل
 فالقيته شطرين من عند حلقه
 الى حيث وصل الجيد بالكاهل العبل

صلاح لبكي

وفي الارض من ازل العراك وبأسه
تبين كالاخدود في عقد الرمل
فبات روي الغل من منهل الردى
ابو الابرد العاتي وفاز اخو الشبل
وقمت فاعددت المدى وسلخته
واقلعت عنه انفض النعل بالنعل

والاميران الاخوان نسيب وشكيب ارسلان شاعران
عربيا الديباجة والسبك أثرت في شعرهما النزعة الوطنية .
يقول الامير نسيب :

يا ناهضين الى العلاء تداركوا
وطناً لكم من ذلة وخراب
ان الاماني الغر قد نبطت بكم
هل يحمل الاعباء غير شباب
ردوا لنا المجد الذي قد فاتنا
وكانه سلب من الاسلاب
عل الدبار تعز بعد صغارها
يا ربما نهض الجواد الكابي

ولعل الامير نسيب واحد من تحسوا البؤس الاجتماعي،
فنظم قصيدة بموضوع « زفير الفقير » ، وصف حال الفقراء ،

لبنان الشاعر

حائناً على اسعافهم واصلاح حالهم ، مشيراً الى الخطر الذي
قد يتأتى عن اهمالهم ، داعياً الى الاعتبار بما حدث في اوربا
من فتن اساسها بوؤس الطبقات المحتاجة :

ا في الحق ان يشقى الفقير بعيشه
وذو المال في شر الغواية يسرف

الى ان يقول :

عليكم بكشف الضر عنهم فانما
اخو الضر بمسي ضارياً حين يجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى
فيبدر منهم بادر لا يكفف
فان لم ينالوا بالهوادة حقهم
ينالوه يوماً والصوارم ترعف
لكم عبرة في الغرب من كل فتنة
تهز الجبال الراسيات وتخسف

اما الامير شكيب فاكثر شعره من النوع الوطني المقترن
بالفخر على الطريقة القديمة الاصولية ، فهذه نونته :

لعمري اللبالي ما عدون ديارنا
ولا حربت الا بطوى هدونها

صلاح لبكي

ركبنا ظهور الصافنات وقد ثوت
باصلابنا فرسات ما في بطوننا

والميسية التي منها :

مواطن اخوان تملوا من الردى
كؤساً تساقوها ببلء الحلاقم
دفاعاً عن الاوطان ان دفاعها
لدى كل قوم كان اولى المكارم

امّا غزله فلا يخرج عن التحليل العقلي :

ايكون مثلي شاعراً واكون من
لم يجتذبه من الوجوه انيسها
ما زال سلطان الجمال محكماً
تأتيه من كل القلوب مكوسها

وهذا داود عمون ، الذي لا نعرف له قصيدة في غير
الوطنيات والحنين الى لبنان ، يجري فيها مجرى القدماء في
مناة السبك وفخامته ، ويخلع عليها من نفسه الابية روعة
وجلالا :

عذيري من خلق باسل اشد وامضى من الذابل
صليب على الكسر لا يلتوي اذا غمزته يد الناقل
حديد قوي النفس ذو همة تضايق في جسد ناعل
• وأورثتها فتى امثل واورثها لفتى مائل

لبنان الشاعر

وقصيدته في الحنين الى لبنان لا تزال على كل فم :
هـاج اشواقى الى الدمن طائر غنى على فنن
يا به يا قمرى ان بنا فوق ما يبكيك من شجن
الى ان يقول مخاطباً اللبنانيين :

ليت ذا عزم يضمهم ضمة الاعضاء في البدن
فيعيدوا السابقات من المجد والعلواء للوطن
وهل انشدكم تلك الوصية التي بلغت اسمى درجات
الحب :

يا بني امي اذا حضرت ساعتى والطب اسلمني
فاجعلوا في الارز مقبرتي وخذوا من ثلجه كفني
ووديع عقل ، شاعر المتانة والتعبير الفخم حتى في ارق
غزلياته .

ورشيد نخله ، أمير الزجل ، هو ايضاً من العصابة التي
سلسلت لها الفصحى ، وهو اقرب الى الفئة الثانية من المخضرمين
الذين تأثروا بالرومنطيقية الفرنسية :

لغد يا نفس ان يأت الغد بين موتى وحياتي موعده
انا اما مائت لا يرتجي او طليق ليس تعلوني يد
ان اكن حياً للبنان اكن رغم ما يلقي الكريم المنجد
او اكن ميتاً ففي لبنان لي ذمة طابت وعهد جيد

صلاح لبكي

ولقد كان حتى في نسيبه وطنياً شوفياً ظاهر الشوفية :

عبق الشوف بالعيشية لما حرك الريح بالعيشية شالك
ما تراه يقول يا حلو عني لو رآني مقبلاً اذبالك

اما شبلي ملاط فشاعر جزل العبارة ، في ابياته هلهلة وسهولة ممتنعة . واننا لنجد بالاضافة الى مجموع مدائح ومرائيه عدداً غير يسير من القصص الشعرية يميل فيها الى مناصرة المرأة للحصول على حقوقها في اختيار الزوج والمحافظة على حقوقها الشرعية وحمايتها من ظلم الوالدين والاخوة كما في قصيدته « بين العرس والرمس » .

هؤلاء هم أبرز الشعراء المحضرمين الذين ظلّ شعرهم وعباً للمثل القديمة فقلّ تأثرهم بمناهل الغرب ونظرياته ، ظلوا على الغالب وصفيين الا ما عبّروا به عن احساس وطني او عن عاطفة تحركها الشفقة والبر والاحسان . لقد هدرت العاطفة الوطنية الصادقة حتى في اغراض النسيب ، ولكنهم لم يحسنوا التعبير الا في ما ندر والا نتفأ عن عمقها .

لقد كانت الاحداث التي اهتمهم اكبر من فتنهم ، ولربما كان انفتاح اعينهم فجأة على روائح أدب الغرب هو الذي بهرهم وأعجزهم الا عن شيء من التمتمة في موضوع الحنين . او لربما كان وجودهم في قلب المعمة الوطنية قد حال

لبنان الشاعر

دون تجسيد العاطفة ضمن اطار الفن ، فقد كان يجب ان يمرّ الزمن ويسبغ التذكار على الحوادث رواه فتلسس لقيادة الفن .

واذ انتقل الى الفئة الثانية من المحضرمين الذين غلب على شعرهم التأثر بنظريات الغرب وبالرومنطيقية على الاخص نطالعنا اسماء الشيخ اسكندر العازار ، وسليمان البستاني ، ونقولا رزق الله ، وسليم عازار ، والفياضين الياس ونقولا ، وامين تقي الدين .

كان الشيخ العازار شيخ حلقة الادب ، كما يقول الريحاني عنه في كتابه « قلب لبنان » ، وسيد سادات الحرية الفكرية . اما بشاره الحوري فالنجم الذي سطع نوره من افراد الحلقة فنفذ الى قلب كل قطر من الاقطار العربية وخفق اسمه بواكب اسماء كبار شعرائها وتغلغل شعره الى القلوب وانطلق على الالسنه .

واننا اذ نطالع شعر الشيخ اسكندر لنستشف فيه احياناً مثل الطيب الذي يذوع به شعر لامرتين في اسراره الى الطبيعة كمن يسرّ الى حي بحسّ ويترفق ويؤاسي ويعطف:

يا تراب الحبيب فيك فتاة
كل ارواحنا تحن اليها
هي كانت عليك الطف ظل
ايها التوب لا تثقل عليها

صلاح لبكي

واما سليم عازار ، بين افراد الحلقة ، فهو الذي التقى ،
في شعره ، على سذاجته وبرائه ، الشعر الرومنطقي اللبناني
والاساليب الاندلسية ؛ ولو اضعف ديباجة وادنى مرتبة :

بي من فارقتها ولدا تحمل الابواق والزرदा - ابداء
مر عهد واتي عهد واستوى واعتدل القد
وقليلاً برز النهد وكسا وجنتها ورد - وندي
حقق الدهر بها ظني وغدت كالبدري في السن
بقوام فاضح الغصن يكتسي من كامل الحسن - برداء
كنت قبلاً حين القاها لا اني أنشق رباها
فلماذا صرت اخشاها والاقى عند مرآها - كمداء
ان بدت فارقتني حسي او مضت اسلمت للباس
اودنت اذهلت عن نفسي ودمي حالاً الى رأسي - صعداء
اكذا مبتدا الحب ان تراني ضائع اللب
هانئاً في البعد والقرب وكان الجمر في قلبي - وقداء
كان إن رافقتها حيننا نجمع الصبح الرباحينا
فتذكرنا مواضينا وزماناً ذكره فينا - خلدا
فجلسنا في حمى الطهر ساعة من نعم الدهر
واذا فاح شذا العطر تنسج الريح على النهر - زرداء
قلت والاشجان تعبت بي انا آه... اهواك ياربي
اخذت كفي ولم تجب فكأني عدت من طربي - ولدا

لبنان الشاعر

قلت آه اهوى وكررت' وهي ما فارقتها الصمت'
 لاحقتني فنشجعت' معصماً كالعاج قبلت' - ويدا
 ثم اوتقنا عرى الود' ودخلنا خيمة العهد
 وتفارقنا على وعد' وعلينا برعم الورد - شهدا
 بيننا في غفلة الامل' بين مكرات الهوى الاوّل
 فوجئت' بالسقم والعلل' وعليها وافد الاجل - وفدا
 اين متى راحة الفكر' اين التي عصمة الصبر
 ما هي الغاية من عمري' وحبيب القلب في القبر - رقدا

وسليمان البستاني ، الذي طغت عليه الشهرة التي اكتسبها
 من ترجمة الياذة شعراً حتى يكاد لا يذكر له شعر آخر
 ولو كان قد بلغ فيه غاية الرقة والحنين متصرفاً بالاوزان
 العربية تصرف الاندلسيين بها . ذلك ان سليمان البستاني كان
 من تلك الطبقة التي امتاز افرادها بمعرفة لغات عديدة ،
 وبالاطلاع على المعارف الشائعة في عصرهم ، وبالتمهر في اسرار
 العربية . فاذا اصغينا الى موشحين له نظمهما في سويسرا ابان
 استشفائه فيها نصغي الى الموسيقى العذبة المتعالية من نفس
 عاودها الحنين الى لبنان بعد تطواف طويل في آفاق الدنيا
 وتمرس صعب بالسياسة العالمية .

في الموشحين من رقة العاطفة وروعة الخيال ما يجعلهما
 في عداد القصائد اللبنانية الجديدة :

صلاح لبكي

افق ولو حيناً قبيل الرحيل لم يبق من صحوك الا القليل
افق فذى شمك راد الاصيل
ان آذنت بالعبور عم الظلام
ونمت عاري الشعور بين النيام
وفاتك الحس وسمع الكلام والمنطق العذب ورأى الجمال

•

ذكرت لبنان وهاج الحنين فؤادي العاني لذاك العرين

قد عز مناه طوال السنين
فأين تلك الفصول بلا انحراف
واين تلك التلول والحوصاف
وأين ماء فيه محي وصاف واين ذياك النسيم العليل

•

لم يكن شاعرنا الكبير بشاره الحوري ، الذي نشرت له دار المعارف ديوان « الهوى والشباب » ، الا واحداً من حلقة الشيخ اسكندر العازار ، يختلف الى مجالسه فيصغي مع المصغين الى نوادره الادبية والشعرية ، ويروح يقرض الشعر معارضاً كبار الشعراء .

لبنان الشاعر

روى عن احد افراد الحلقة ان الشيخ اسكندر كان ،
اذا قيل له : « هوذا بشاره يقرض الشعر » ، يجيب : « بشاره
صحفي وسليم شاعر ، وهو يعني سليم عازار ، فاتركوا
بشاره للصحافة يبرز بها » . وكان بشاره انذاك قد أنشأ
مجلة « البرق » يساعده الشيخ اسكندر العازار ، شيخ الحلقة .
الا ان بشاره لم يقنع بالصحافة بل عكف على النظم وطلع
ذات يوم على شيخه ورفاقه بقصيدته الغزلية :

عشت فالعب بشعرها يا نسيم
واضحكي في حدودها يا نجوم
من ملاك في بردتها مقيم
جسد طاهر وروح كريم
وحيا فيه ترى البدر حيا

وانطلق الى فضاء الشعر لا يتخطى حدود ما رسمه
الأقدمون . شعر وصفي لما يقع تحت العين ولما تلمسه الاكف ؛
فهو في قصيدته وصف فتاة :

شعرها قطعة من الليل والحُد
قبلته شمس الضحى فتورد
وعلى صدرها متى تتنهَّد
موجة هزت الصغيرين في المهد
فاشرابا كمن تخوف شيا

صلاح لبكي

وفي قصيدته « هند وأما »

أنت هندُ تشكو الى أمها فسبحان من جمع النيرين .

فقال لها :

ان : الضحى قبلها قبلتين - والدجى جباها من شعره
خصلتين - والروض وضع في الصدر رمانتين - والعصن
قدم لها وردتين - والبحر موجتين -

وفي قصيدته التي عنوانها « من مآسي الحرب » :

ألمى أهدت اليها المقلتين* والظبا اهدت اليها العنقا
فهما في الحسن اسنى حليتين* للعذارى ، جل* من قد خلقا
ودرى الروض بتين المنحنتين* وقديماً يعشق الروض الحسان*
فكسا بالورد منها الوجنتين* وكسا مبسها بالاقحوان*
ورسى في صدرها رمانتين* من رأى الرمان فوق الخيزران*
فهما في صدرها كالموجتين* اي صب ما نمتى العرقا ؟
او هما - وليسما - كالتوأمين* كلما هممت بأمر قلقا
ورآها الليل فاختر المقام* - ولقد طاب له - في شعرها
وصبا الفجر فأضحى حين هام* بهواها درة في نعرها

اقول في هذه القصائد يضع الرسم الحبيب ، رسم جمال
المرأة كما تخيله متقنياً الاقدمين ، لا فرق بين واحدة من
الحسان واخرى ، حتى ليظن ان الفتاة التي وصفها في وصف

لبنان الشاعر

فتاة هي هند التي جاءت تشكو الى امها وهي اخيراً ضحية
علي منيف في « من مآسي الحرب » .

جمال فتاته او فتياته مجموعة من عيون المهى ، واعناق
الطبا ، وخصل الليل ، وورد الحدود ، واقحوان الشفاه ،
وخيزران القدود ، ورمان الصدور - من رأى الرمان
فوق الخيزران - وموج الردفين قارة والصدر أخرى ، اي
صب ما تمسى العرقا .

ولكن بشاره الحوري الذي بدأ يقرض الشعر سنة ١٩٠٩
على هذا النحو ما لبث ان عكف على مطالعات اجنبية خلبته ،
فعرّب قصائد كثيرة ، وقد تكون هذه المطالعات هي التي
صرفته الى نحو آخر من الوصف : الى وصف اللواعج وما
اليها من حنان وعطف ورضى وغضب . غير انه لم يرفع
الصوت بصيحة ألم الا في ما ندر كمثل هذا التلهف على
ضياع الهوى والشباب والامل المنشود . فقد ظل شعره
يخفق بالاخبار عن العواطف وبوصفها لا بالتعبير عنها تعبيراً ،
تعبيراً مباشراً .

وكثيراً ما يتجاوز موضوعه متخذاً منه مناسبة لوصف
مشهد من مشاهد الطبيعة كالجبل والسهل والبحر ، كما في
قصيدته قلب خاقق :

صلاح لبكي

انا ساهر والكون نا م وكل ما في الكون نام
 نام الجميع ومقلتي يقظي تجول مع الظلام
 حتى نجوم الافق نا مت فوق طباط الغمام

انا ساهر وجبال لبنان عليها الصمت حام
 خلع الجلال على منا كبا مواهبه الجسام
 فكانها اذ صعّدت في الجو مرّاد عظام
 صمت لدن برز الدجى فكان في فمها جام

انا ساهر والسهل في حضن الطبيعة كالغلام
 وكأمة فتحت ذرا عينا ليهنا بالنام
 يغفو ويحرس ثغره روح البنفسج والحزام
 الهل نام فلا حرا ك ولا هتاف ولا بغام

انا ساهر والبحر اخرس لا هدير ولا احتدام
 كاللارد الجبار منطرح على صدر الرغام
 فكانه والرمل الفا صبوة منذ القطام
 فتعانقا عند المنا م وملء ثغرها ابتسام

لا حس حتى خلت ان ساد الحمام على الانام
 وحسبت انفاس الورى سجت باقفاص العظام
 صمت يقزك فيه حب النمل في ملس الرخام

لبنان الشاعر

الا ان هذا الشعر يتميز بصوره القوية الواضحة التي تطفو
عليها حالة مرضية ، هي جلّ ما اقتبسه الشاعر من الرومانطيين :

يحمل الابتسام في شفتيه والمنايا تسيل من اردانه
كسراج في جوف دير قديم هرقت روحه على جدرانہ
يشهق الشهقة الحفية في الفجر ويفني انفاسه بدخانہ
كعليل على فراش من السل بعيد المزار عن اخوانہ
كلما الحف السعال عليه اطعم الداء قطعة من جنانه

ولقد يعمد احيانا الى ابتداء صور محض تخيلية اسطورية
كما في « سلمى الكورانية » و « مولد المتنبي » :

عرس من الجن في الصحراء قد نصبوا
له السرادق تحت الليل والقبيا
كأنه تدمر الزهراء مارجة
بمثل لسن الافاعي تقذف اللهب
او هضبة من خرافات مرقعة
باعين من لظى او من رؤوس ظبي
تخاصر الجن فيها بعد ما سكروا
وبعد ما احتدمت اوتارهم صخبا
فأفزع الرمل ما زفوا وما عزفوا
فطار يستنجد القبعان والكتبا

صلاح لبكي

ويتصف على الاخص بموسيقاه ، فهو قد علم بسر الشعر
العربي المطبوع على تجانس المقاطع واثلافيها ، فوافق في نفسه
وتراً فاذا بكل شعره قطع موسيقية يسيطر عليها النغم
العذب ، حتى لتصرف اليها النفس من دون المعنى ، وحتى
ليغتفر العقل رداءة المعاني احياناً وابتذالها . الا ان الاخطل
في موشحاته بلغ الغاية .

ولنسمعه في قصيدته « بأبي انتَ وأمي » :

اسقنيها باني انتَ وامي لا لتجلوهم عني ، انت همي
املا الكأس ابتساماً وغراماً
فلقد نام الندامى والحزامى
زحم الصبح الظلاما فالامام
ثم نهنه شفتينا ، ونذوب مهجتينا ، رضي الحب علينا
يا حبيبي

باني انت وامي ، اسقنيها لا لتجلوهم عني ، انت همي
غنني واسكب غناك ولماك
في فمي ، فديت فاك هل اراك
وعلى قلبي يداك ورضاك
هكذا اهل الغزل كلما خافوا الملل انعشوه بالقبل
يا حبيبي

لبنان الشاعر

بابي انت وامي ، اسقنيها لا لتجلو المهم عني ، انت هي
صبتها من شفتيك في شفتيا
ثم غرق ناظريك في ناظريتا
واختصرها ما عليك او عليتا
ان تكن انت انا وجعلنا الزمانا قطرة في كأسنا
يا حبيبي

بابي انت وامي ، اسقنيها لا لتجلو المهم عني ، انت هي

فما هي منزلة الأخطل الصغير من تطور الشعر العربي
في لبنان ؟

يؤلف شعره حلقة بين المفهوم القديم للشعر والمفهوم
الرومانطيسي .

لقد تخلى الأخطل عن أكثر مواضيع القدماء ، فلا مدائح
الا ما ندر ، ولا هجاء الا ما ندر ، ولا رثاء الا في اديب
او وطني او صديق . عاش عصره ، فوصف حالة البؤس
واحسن مع البؤساء ، ونادى بالعدل الاجتماعي ، واوحت له
الحوادث السياسية شعراً وطنياً ثار به على الظلم والاستبداد .

صلاح لبكي

لكنه عبّر عن خوالج نفسه واشتهر واثّر بهذا النوع من الشعر الوجداني مهدداً لمدرسة الياس ابي شبكة ، بما هيا من حجارة البناء وبما تحير الالفاظ الرقيقة وتغنى بجمال الطبيعة موثقاً عرى الصداقة بينها وبين الانسان .

وله على الرومنطيقية في لبنان هذا الفضل الآخر وهو انه في التعبير عن الفكر والاحاسيس الجديدة لم يخرج على عبقرية اللغة ، ولم يحطم القوالب العربية القديمة ، بل افاد من صناعة العرب وقوالبهم وصفاء لغتهم .

وإذا كان قد تأثر بنظريات من لحقوه حتى ليبدو شعره الحديث اجمل تخيلاً وانعم موسيقى واعمق احساساً ، فلا مراء في انه كان الحافز الاول في تقديم الفن الجديد .

نشأ في لبنان مدرستان ، بعد بشاره ، الرومنطيقية والرمزية . وأغرب ما في الأمر ان آثار الشاعر استهدفت لنقمة هؤلاء واولئك على السواء . ففي سنة ١٩٣٠ سنتت عليه « عصابة العشرة » في مجلة « الجمهور » حملة نارية اشترك فيها : ابوشبكة ، وخليل تقي الدين ، وميشال ابوشهلا ، ووصفوه بجفار القبور اشارة منهم الى قصائده المترجمة التي كان ينشرها ويدعيها موضوعاً وشكلاً .

لبنان الشاعر

فيرد من قصيدته في رثاء حافظ :

شاعر النيل جز طريقك للخلد وخذها لمن تريد صداقا
درة صاغها الذي ترك الحساد تجري ولا تطيق لحاقا
كلما اطبق الغبار عليهم حشرجوا تحته وماتوا اختناقا

ودعت الجامعة الاميركية الأخطل الصغير ، وسعيد
عقل ، زعيم الرمزية في لبنان ، الى حفلة اقامتها في قاعة
« وست » ، فألقى الاخطل قصيدته « عروة وغفراء » ، وقد
كان نظمها عشرين سنة قبل ذلك سنة ١٩١٧ ، وما ان
انتهى حتى وقف سعيد عقل ، وكان بعد في مستهل الشباب ،
وقال انه لا يقيم وزناً لشاعر يعيش على ساحل البحر الأبيض
المتوسط تغسل اقدامه الامواج ويكمله صنين بتيجانه ، ثم
يجمل نفسه الى الصحراء لتوشي قصائده .

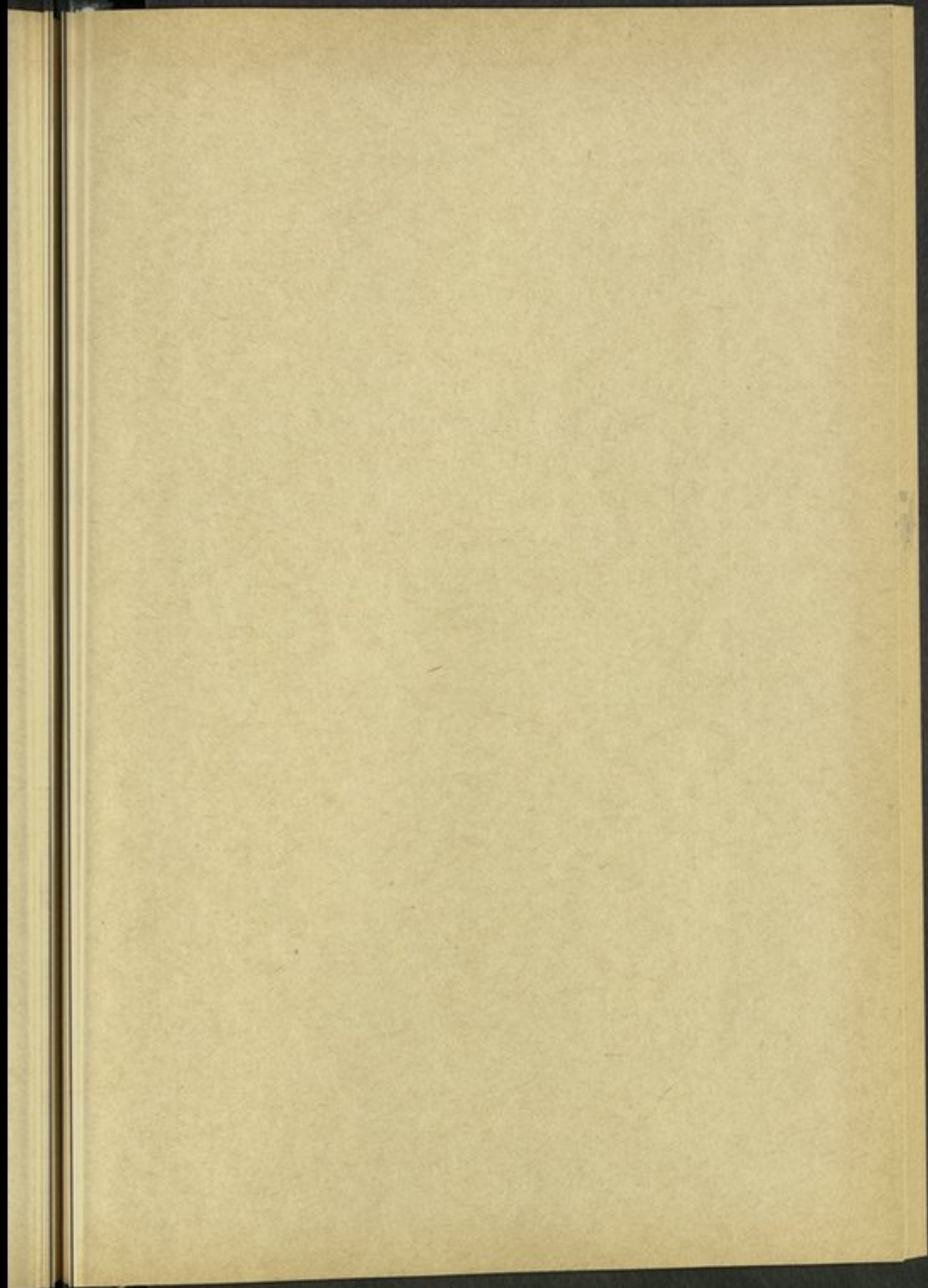
فرد الأخطل بمتشلاً بقوله :

ومعشر حاولوا هدمي ولو ذكروا
لكان اكثر ما بينون من أدبي
تركتهم في جحيم من وساوسهم
ورحت اسحب اذبالي على السحب .

صلاح لبكي

فالأخطل ، كأكثر القدماء ، يعدّ كل نقد بوجه الى آثاره تعرضاً شخصياً له . ولا غرو فهو لم يعانِ التبصّر في النظريات ولا اتبع في النظم مبادئ مدرسة ، ولا وضع ولا تبسّى نظرية .

لو ان ديوان الاخطل الصغير نشر في حدود ١٩٢٠-١٩٢٥ لكان له وقع الحدث ، ولكنه ، وهو لم يظهر في حينه ، يبدو اليوم ، برغم اشتغاله على المقاطع الجديدة التي قلت انها تأثرت بنظريات اللاهقين بمن ناصبوا صاحبه العدا ، وكأنه زهور ربيع سبق ، له جماله وروعته وأثره الفاعل ، الا ان الجمال والروعة والطيب هذه تحمل طابع عصر عبّر ومفهوماً شعرياً نأى ، فلا دخل له في معترك الحاضر .



الشعر المَجْرِي
جبران

قبل الاستطراد الى درس الشعر اللبناني عند الشعراء الذين نشأوا بعد ان استنفدت المدرسة الأخطلية مفاهيمها ، لا بدّ من التوقف عند شاعر كان له الأثر البالغ ، على وضع الشعر وعلى وضع التفكير في العالم العربي كله ، بل عند شاعر تجاوز نطاق الحدود العربية ، فانطلقنا معه الى العالم في مؤلفاته باللغة الانكليزية ، ولو كان لا يعيننا منه الا آثاره العربية : خليل جبران .

نعم ، لا بدّ لمن يريد تتبع التطور الذي طرأ على الشعر في لبنان الا ان يقف عند جبران والا ان يعترف له بفضل السباق وبفضل المجلي .

افتقدنا مع شعرائنا وادبائنا الذين حاولوا محاكاة القدماء ، والذين قلنا فيهم ان " الاحداث التي أهتمهم كانت اكبر من فنهم الى شاعر يعبر عن شعور أمة وعن حياة أمة ويتعادل فنّه ومواهبه مع الاحداث التي يعالجها حتى اقبل جبران .

فهرده وفلسفه

كانت تسود لبنان ، عندما طلع جبران على الحياة :
اقطاعتان : واحدة سياسية وأخرى دينية . وبحسبنا ان
نعرف ذلك لنفهم سبب انطلاقه ثورة صاحبة على التقاليد
ودعوة عنيدة الى التحرر . اذ هو من اول كتاب عربي
له : « الموسيقى » ، الى آخر كتاب : « العواصف » ، متمرّد
على هذه التقاليد وعلى الشرائع القاسية التي تحدّ من حرية
الفكر والقلب والتي تسمح لحفنة من الآدميين ان تتحكم
في ارزاق الناس وعواطفهم واعناقهم باسم القانون وباسم الدين .

« الشريعة وما هي الشريعة ، من رآها نازلة مع نور
« الشمس من اعماق السماء ؟ وايّ بشري رأى قلب الله فعلم
« مشيئته في البشر ؟ وفي أيّ جيل من الاجيال سار الملائكة
« بين الناس قائلين احرموا الضعفاء نور الحياة وافنوا الساقطين
« بجدّ السيف ودوسوا الخطاة باقدام من حديد ؟

« من اعماق هذه الاعماق نناديك ايتها الحرية فاسمعينا ..

« من منبع النيل الى مصبّ الفرات يتصاعد نحوك عويل
« النفوس متموجاً مع صراخ الهاوية ، ومن اطراف الجزيرة

لبنان الشاعر

« الى جبهة لبنان تمتد اليك الايدي مرتعشة بنزاع الموت ،
« ومن شاطئ الخليج الى اذبال الصحراء ترتفع نحوك الاعين
« مغمورة بذوبان الافئدة . فالتفتي ايتها الحربة وانظرينا . »

فعرانس المروج يتضمن قصصاً ثلاثاً : « رماد الاجيال
والنار الخالدة » ، « مرثا البانية » و « يوحنا المجنون » . ونحن
اذا تركنا موضوع الاولى لما لها من علاقة بعقيدة التناسخ
التي آمن بها جبران حتى النهاية نجد في مرثا البانية قصة
فتاة فقيرة الحال طاهرة القلب والجسد اغواها رجل من المدينة
فحملت منه وولدت غلاماً ، ثم نبذها المغير فرمتها الحاجة
في احضان الدعارة . يهتدي اليها المؤلف وهي على فراش
الموت فيدور بينها حوار حول ادران الجسد وتقاوة النفس ؛
وفي يوحنا المجنون : حكاية راع حبس الرهبان عليه عجولته
لأنها ارتعت زرع الدير . يحاول المؤلف فيها ايقاظ الشفقة
على بطل القصة .

ويتضمن كتاب الارواح المتسردة حكايات : « السيدة
وردة » و « صراخ القبور » و « مضجع العروس » و « خليل
الكافر » . الاولى قصة فتاة يشاء لها اهلها ان تكون زوجاً
لرجل غني يفوقها سناً . فما لبثت ، وهي الامراة البعيدة
الفكر ، الصادقة القلب ، الجميلة الوجه ، النبيلة الروح ، ان
كرهت الزوج يوم التقت بالفتي الذي آثار كوامن نفسها .

صلاح لبكي

والثانية ، صراخ القبور ، حكاية ثلاثة حكم عليهم الامير
بالموت تعسفاً من غير ما دليل ولا شهادة ولا سؤال .

والثالثة ، مضجع العروس ، حكاية فتاة يشي لها الوشاة
ان حبيبها هام بغيرها فتزف الى رجل لا تربطها به رابطة .
وليلة الزفاف تجتمع الى حبيبها فيؤكد لها الخبر فنستل
خنجرآ وتطعنه ، وعندئذ يبوح لها بحبه ويلفظ أنفاسه ،
فندعو الناس الى عرسها الحقيقي . وبعد خطبة عن الحب
وقساوة التقاليد تغمد الخنجر في قلبها . واذ يرفض الكاهن
الصلاة على المنتحرة تنبزي فتاة متمرده تعنفه : « انا ابقى
هنا ، وانا احرسها حتى يجي الفجر ، وانا احفر لها قبراً تحت
هذه الاغصان المتدلّية » .

والرابعة ، خليل الكافر ، نسخة اخرى عن بوحنا
المجنون ، مع هذا الفارق ان خليل الكافر متمرّد لا يخشى
ان يثور على نظام الحكام والادبار في حضرة الحاكم والكاهن
الذي جاء يشكوه الى الحاكم .

وفي الاجنحة المتكسرة حكاية غرام جبران يحطه طلب
المطران سلمى لابن اخيه واستجابة الوالد لطلب المطران من
غير ان يستشير ابنته ، وخضوع الابنة من غير ان تأخذ
رأي حبيبها . وفي الحكاية ثورة على التقاليد كما في ما تقدمها
من قصص جبران .

لبنان الشاعر

انه لمن التسامح الكلي ان ندعو هذه القصص الجبرانية قصصاً لانّ الحياة ، كما يقول الاستاذ نعيمه في مقدمته على آثار جبران العربية ، « ما اعدته لذلك الفنّ ، فلم يبدع فيه ولم يخلق ، واعدته لفنون اخرى فأبدع فيها وخلق . فقد كانت تسيطر عليه طبيعتان متفوقتان ، طبيعة الفنان الوجداني المرهف الحسّ والشعور ، وطبيعة المرشد والمصلح والواعظ . فالاول لا ينفك ينسج عالمه من نفسه نظير ما تنسج دودة القز فيلجتها من خيوط في احشائها . فاذا راح يعالج عالماً غير عالمه ، أعوزته المقدرة على حبك الحوادث وتصوير الاشخاص والحالات حبكاً وتصويراً يتناسبان مع الواقع المحسوس ، حتى وان كانت الغاية التي يهدف اليها فوق الحسّ وأبعد من الواقع ، والثاني دأبه التفتيش عن مواطن الضعف والوجع في الناس ، حتى اذا وقع عليها انطلق يندّد ويبكت ويؤنّب .»

وجبران ، في قصصه ، يخلق حالاتٍ واشخاصاً تنقصهم ابدأ دقة الحبك والتصوير الواقعي ، ولا غرض له من خلقهم الا ان يجعل منهم مطايا لقلمه ليفتن ما شاء له الفنّ في وصف الطبيعة وثنى المشاعر البشرية وعلى الأخص تلك التي يغلب فيها التوجع والتأسي ، والا ليلقي المواعظ الجميلة في قسوة الناس وقذارتهم وخنوعهم وفي الجمال والحقّ والحريّة وما اليها .

صلاح لبكي

فجبران شاعر ، وما قصصه هذه ، التي عرضنا لها في عرائس المروج والارواح المتمردة والاجنحة المتكسرة ، الا قصائد طويلة ، او قصيرة ، ثار فيها على الاوضاع الاجتماعية في بلاده ، وتمرد على الشرائع ، متفجعاً على البائسين ، مشاركاً المحرومين مرارتهم واوجاعهم وكآبتهم .

جبران الثائر المتمرد في هذه القصص ، جبران لبناني يحس في أعماق أعماقه آلام لبنان ، هذا اللبنا الذي استمدّ هو من جباله ووديانه وسهوله وبحره واغساقه واسماره ألوان ريشته وصور خياله ، واحبّ اهله وتغنّى بهم ، وبجبّ فلاحي بلادنا ورعاتها وكرّاميتها وآبائها وامهاتها ، بجبّ البنائين والفخارين والحائكين وصانعي الاجراس والنواقيس فيها . قد تغنى بهم جبران كما تغنى في قصيدته ، لكم لبنانكم ولي لبناني :

« ابناء لبناني

« هم الفلاحون الذين يجولون الوعر الى حدائق وبساتين

« هم الرعاة الذين يقودون قطعانهم من وادٍ الى وادٍ فتنمو

« وتتكاثر وتعطيكم لحومها غذاء وصوفها رداء

« هم الكرامون الذين يعصرون العنب خمرآ ويعقدون

« الخمر دبساً

« هم الآباء الذين يربون انصاب التوت والامهات اللواتي

« يغزلن الحرير

لبنان الشاعر

« هم الرجال الذين يصدون الزرع والزوجات اللواتي
يجمعن الاغمار »

« هم البناؤون والفخارون والحائكون وصانعو الاجراس
والنواقيس »

« هم الشعراء الذين يسكبون ارواحهم في كؤوس جديدة ،
وهم شعراء الفطرة الذين ينشدون العتابا والمعنى والزجل »

« هم الذين يغادرون لبنان ، وليس لهم سوى حماسة في
قلوبهم ، وعزم في سواعدهم ، ويعودون اليه وخيرات الارض
في اكفهم واكاليل الغار على رؤوسهم »

« هم الذين يولدون في الاكواخ ويموتون في القصور » .

ولكن جبران ، وقد انطلق نائراً على تقاليد بلاده وعلى
الشاذ وعلى ما ظنه شاذاً من اوضاعها ، على الاقطاعية
السياسية والاقطاعية المدنية ، ما عثمت ثورته ان تناولت
الناس ، وتقاليدهم وموازينهم واسس حياتهم ، هؤلاء الذين
يعيشون في الخوف والذل والعبودية والمسكنة والذين لم
تحررهم سياساتهم ولا فلسفتهم ، بل على العكس ، مكثت
في نفوسهم مخاوف ورددات لا حصر لها ، اذ قضت على
الارادة الخلاقة فيهم ، التي هي وحدها الكفيلة بأن تبلغ بهم
الانسان الأمثل ، او الانسان المتفوق ، او « السوبرمان » ،

صلاح لبكي

وهذه الثورة التي انطلق معها من أجواء لبنان الى أجواء العالم، وتمثلت على الاخص في كتابيه المواكب والعواصف ثورة :

على الرجال « الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً »

وعلى « النساء اللواتي يسرن بمدودات الأعناق غامزات العيون وعلى ثغورهن الف ابتسامة وفي أعماق قلوبهن غرض واحد »

وعلى « ذوي نصف المعرفة الذين يبصرون في المنام خيال العلم فيتخيّلون انهم اصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة ويرون في اليقظة احد اشباح الحقيقة فيتوهمون انهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق »

على « الحشن الذي يظن اللطف ضرباً من الضعف والتساهل، نوعاً من الجبانة والترفع، شكلاً من الكبرياء »

وعلى « المتمولين الذين يظنون ان الشمس والاقمار والكواكب لا تطلع الا من خزائنها ولا تغيب الا في جيوبهم »

وعلى « الساسة الذين يتلاعبون بأمانى الأمم وهم يذرون في عيونها الغبار الذهبي ويملاون آذانها برنين الالفاظ » .

لبنان الشاعر

على « ذلك البناء العظيم الهائل ، المدعو حضارة ، ذلك
البناء الدقيق الصنع والهندسة ، القائم فوق رابية من
الجماجم البشرية »

لقد ثار ، « لان الحياة وضعت في صدره قلباً هو كتلة
من الشعور الرقيق والحس المتناهي . فلما التفت يمنة وبسرة ،
لم يرَ حوله الا قلوباً خست عليها التقاليد ، فقتلت فيها الحق
والاخلاص والحنين الى ما هو خلف نقاب اليوم فلم يعد
من صلة بينها وبين السنة اصحابها وادمغتهم ، ورأى الشعراء
ينطقون بما لا يشعرون ، والخطباء يتكلمون لا حباً بابرار
فكر وبث دعوة ، بل حباً بالكلام . فوجد نفسه دولاباً
يدور يمنة بين دواليب تدور يساراً^(١) .»

ولا مشاحة في ان احتكاكه بمدينة الغرب ، هنا في
اوربه ، وهناك في بلاد نواطح السماء ، والعجلات والآلات
والحركة الدائمة ، بهذه المدينة التي تستأثر بكل قوى المرء
الجسدية وبكل ساعات نهاره واكثر ساعات ليله ، بل والتي
تستأثر بنفسه واحلامه هو الذي حفزه الى الانطلاق من ثورته
على الاوضاع المحدودة والمجتمع المعين الى الثورة على اوضاع
الانسان في كل صقع وتحت كل سماء .

(١) النبيعة ، في مقدمته على آثار جبران العريية .

صلاح لبكي

ولكن جبران لم يكن من هؤلاء النيرونيين الذين يحرقون ويهدمون لجرد لذّة الهدم والاحراق ؛ لقد هدم لبيني ،
فماذا بنى :

دعا الى المحبة ، « الى حقيقة المحبة التي تشدّ الاكوان بعضها الى بعض وتجعل للحياة معنى شاملاً يتسامى فوق كل المقادير والمقاييس البشرية وتقيم للانسان وزناً يضيق به الزمان والمكان » .

فنقمته محبة ، وتمرده محبة ، وغضبه محبة ، وتقريبه محبة ، ولعناته كلها صادرة عن المحبة : « وعظمتي نفسي فعلمتني حباً ما يمتقه الناس ومصافاة من يضاغنونه ، وأبانت لي ان الحب ليس بميزة في المحب بل في المحبوب ؛ وقبل ان تعظني نفسي كان الحب بي خيطاً دقيقاً مشدوداً بين وتدني متقاربين ، اما الآن فقد تحول الى هالة اولها آخرها وآخرها اولها تحيط بكل كائن وتتوسع ببطء لتضم كل ما سيكون » .
« وعظمتي نفسي فعلمتني وأثبتت لي اني لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة » .

ولقد عّلم في « ارم ذات العماد » : ان كل ما في الوجود كائن في باطن الانسان ، وان كل ما في باطن الانسان موجود في الوجود ، وليس هنالك حدّ فاصل بين أقرب الاشياء وأقصاها او بين أعلاها وأخفضها او بين أحقرها وأعظمها

لبنان الشاعر

« وان كل مكان وزمان حالة روحية . وكل المرئيات والمعقولات حالات روحية . فان انمضت عينيك ونظرت في أعماق أعماقك ، رأيت العالم بكلياته وجزئياته ، وخبوت ما فيه من النواميس وعلمت ما يلازمه من الذرائع وفهمت ما يتلمسه من المحجات » ، وان بإمكان كل انسان ان يغمض عينيه ويرى جوهر الحياة المجرد ، « لان كل انسان يستطيع ان يتشوق ثم يتشوق ثم يتشوق حتى ينزع نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد اذ ذاك ذاته ، ومن ير ذاته يرى جوهر الحياة المجرد . فكل ذات هي جوهر الحياة المجرد » .

وانه لمن الغرابة ان نجد قرابة بين نيتشه وجبران ، وشاعرنا مطبوع على كل هذا التصوف الذي لم يفارقه حتى في أشد حالات النقمة والتمرد والثورة .

انه لمن الغرابة ان نجد نسباً بين مؤمن يرى الكمال في الاتحاد بالله وملحد يعلن موت الله ولا يؤمن الا بقوة الارادة ولا يركز الاخلاق الا على محض اسس فردية حتى لقد زعزعت تعاليمه المجتمع الاوربي وأفقدت اناسه الثقة بالقيم التي كانوا يدينون بها من غير ان تتوصل الى تقرير قيم نهائية جديدة يطمثون اليها ويحتكمون .

انه لمن الغرابة ان نجد قرابة او نسباً او شبيهاً الا اذا خدعنا بمظاهر العنف في التعبير ؛

صلاح لبكي

على ان هذا العنف في التعبير استمدّه جبران من التوراة التي كان لها أبعاد الأثر على أسلوبه .

اسلوب

كان لا بدّ لجبران ليعبر عن كل هذا الجديد ، ولا سيما في الربع الاول من القرن العشرين ، من ابتداع اسلوب جديد .

اما هذا الاسلوب فهو الاسلوب الجبراني :

تنكبّ عن المألوف من الجناس والمجاز ،

ومحاولة لتحميل الكلمات فوق ما تعودت حمله من

المعاني ولتجريدتها من التفاهة والفضول .

وفيض من الصور الرائعة المبتكرة . ولعل هذا الفيض

الصوري هو أخص خصائص أسلوبه ، فهو يرى المعاني رأي

العين اشكالاً حية متحركة معطرة .

وتخل هذه الصور عنده في الفاظ مختارة منتقاة وفي عبارات

موسيقية لطيفة وقع الجرس شجية الا لحن عذبتها .

وهو الى كل ذلك يريد من الكلام أبعاد من كل ذلك

وأعمق : « ليس الفنّ بما تسمعه باذنيك من نبرات وخففات

لبنان الشاعر

اغنية او من رنات اجراس الكلام في قصيدة ، او بما تبصره
بعينيك من خطوط والوان وصورة . بل الفن بتلك المسافات
الصامتة المرتعشة التي تجيء بين النبرات والحفصات في الاغنية
وبما يتسرب اليك بواسطة القصيدة بما بقي ساكناً هادئاً
مستوحشاً في روح الشاعر وبما توجيه اليك الصورة فتري
وانت محدق بها ما هو أبعد وأجمل منها .

التأوه بالرمزيين

هذا يلتقي جبران بالرمزيين ، وربما بالسوريالين انفسهم .
ولقد تكون الموسيقى كلمة السر في كل ما ذهب اليه
جبران ، في نظره الى الكون والى الحياة والوجود ، وفي
شعره ونثره الشعري .

اول كتاب وضعه هو كتابه في الموسيقى التي يرى فيها
« جسماً من الحاشية له روح من النفس وعقل من القلب » .
وفي هذا الكتاب ينتهي ، بعد المرور بشتى الحالات التي
ترافقها الموسيقى ، وبعد استعراض مكانتها عند الشعوب ووصف
معاني النهوند والصبا والرصد ، ينتهي الى هذا الدعاء :
« كبر ايها الكون الأولى بثوا في سمائك انفسهم وملأوا

صلاح لبكي

المواء ارواحاً لطيفة وعلموا الانسان ان يرى بسمعه ويسمع
بقلبه . امين .

وهل لنا ان نرى في قصيدة شيراز لسعيد عقل ، ونهوند
لصلاح الاسير ، صدى لما كتبه جبران عن الموسيقى ؟

فاذا اخذنا المواكب ، هذه البناية الشعرية ، التي تتضمن
رأي الشاعر بخير الناس وشرهم بحياتهم بادبائهم بعدلهم بحقهم
بعلمهم وبجريتهم بلطفهم وظرفهم بحبهم وجنونهم وسيادتهم
بارواحهم واجسادهم وموتهم ، كما تتضمن رأيه بما يجب ان
يكون ، لوجدنا انه يصرّ ، بعد ابداء كل رأي من هذه
الآراء وعرض كل نظرة من هذه النظرات ، على ان الخالد
الباقي الذي يجمع ويوحد ويصفي انما هو الموسيقى .

فكأنما الكينونة من الازل الى الابد تناغم وحسب .

اعطني الناي وغني فالغنا يرعى العقول
وانين الناي ابقى من مجيد وذليل

...

اعطني الناي وغني فالغنا يبحو المحن
وانين الناي يبقى بعد ان يفنى الزمن

...

اعطني الناي وغني فالغنا خير مراب
وانين الناي يبقى بعد ان تفني الهضاب

لبنان الشاعر

اعطني الناي وغني فالغنا خير صلاة
وانين الناي يبقى بعد ان تفتى الحياة

...

اعطني الناي وغني فالغنا عدل القلوب
وانين الناي يبقى بعد ان تفتى الذنوب

...

اعطني الناي وغني فالغنا عزم النفوس
وانين الناي يبقى بعد ان تفتى الشمس

...

اعطني الناي وغني فالغنا خير العلوم
وانين الناي يبقى بعد ان تطفئ النجوم

والمواكب بما هي اول قصيدة من نوعها ، على ما يقول
نسيب عريضة في مقدمته لها ، تستحق التوقف على ما اراده
الشاعر من ورائها .

يقول النعيمي^(١) : « في القصيدة تياران يجريان في اتجاهين
متعاكسين . وليس من صلة بينهما الا التي يقبها خيال الشاعر

(١) النعيمي ، في مقدمته لآثار جبران الريه .

صلاح لبكي

في وجدان القارىء . والقصيدة في تيارها الاول من البحر البسيط ، وفي الثاني من مجزوء الرمل . والتياران يبدوان كما لو كانا حواراً بين شخصين . ولكنها ليسا كذلك . بل جلّ ما في الأمر ان الاول يمثّل الحياة بظاهرها القبيح وباطنها الجميل . والثاني يمثّلها وحدة روحية لا باطن لها ولا ظاهر . الاول يتبرّم بما في الحياة البشرية من رياء وضعف وذلّ وقلق ونضال دائم ما بين الخير والشرّ . والثاني يمجّد الحياة في « الغاب » - حياة الفطرة والسليقة - حيث لا خير ولا شرّ ، بل استسلام كامل الى المشيئة العاقلة المدبرة التي تتسامى فوق الشرّ والخير . ولعل ذلك ما حدا بكاتب المقدمة - نسيب عريضة - ان يتخيّل الصوت الاول صوت شيخ والثاني صوت شاب . اما في الواقع فالصوتان ليسا سوى صدى النزاع الداخلي في نفس جبران ما بين ايمانه بفطرة الانسان الالهية وبين ما كان يبصره في حياة الناس من بشاعة ووجع وتشويش : يفتتح الصوت الاول القصيدة بأبيات في الخير والشرّ ثم ينتقل بك الى الحياة فالدين فالعقل فالحقّ فالعلم فالحرية فاللطف فالظرف فالحبّ فالجنون فالسعادة فالروح والجسد فالموت . وهذه كلها يجول فيها جولات طويلة او قصيرة تتشابه في رزانة النبوة وفي السعي وراء الجديد والجليل في المعنى ، وتتفاوت في حظوظها من الوضوح والغموض ومن انسجام المعاني والمباني . ففي الكثير منها

لبنان الشاعر

نحسّ شيئاً من الاسف على فكرة واسعة يفرغها الشاعر في
قالب ضيق ، وعلى صورة بديعة تشوهها قافية دميمة . ونحسّ
فوق ذلك ان جبران يجهد نفسه كثيراً ليروض اللغة والوزن
والقافية ويجاوب ان يخفي إجهاده . ولكن العباء لا يلبث
ان يبدو عليه . الا انه ، حيناً حالفه التوفيق جاءك بالنفائس
وبالحرة البكر . مثال ذلك قوله في الحياة :

« فالارض خمارة والدهر صاحبها
وليس يرضى بها غير الاولى سكروا ،
وقوله في الحقّ :

« والحقّ للعزم والارواح ان قويت
سادت وان ضعفت حلت بها الغير ،
... وفي الزراير جبن وهي طائفة
وفي البزاة شموخ وهي تحتضر ،
وقوله في الحرية :

« والحرّ في الارض يبني من منازعه
سجناً له وهو لا يدري فيؤتسر ،
وقوله في الحبّ :

والحبّ ان قادت الاجسام موكبه
الى فراش من اللذات ينتحر

صلاح لبكي

والحبّ في الروح لا في الجسم نعرفه
كالخمر للوحي لا للسكر تنعصر ،

وقوله في السعادة :

« وما السعادة في الدنيا سوى شع
يرجى فان صار جسماً مله البشر ،

اما الصوت الثاني فتسمعه في نهاية كل جولة من جولات
الصوت الاول . فان تبزم الاول بجزن او بعبودية او بجهل ،
وان تحدث عن الحق والعدل والسعادة والموت والحياة وما
اليها ، انبرى الثاني يقول ان « ليس في الغابات ، شيء من
ذلك . بل كل ما فيها الفة وصفاء وهناء لا يشوبها شيء .
من التناقض القائم في افكار الناس وقلوبهم من حيث علاقتهم
بعضهم ببعض وبالكائنات من حولهم . وهو جدّ ولوع بالنفخ
في الناي الذي يتخذ من انغامه رمزاً للخلود . لذلك لا
ينفك يطلبه في آخر كل نشيد من اناشيده . فيقول - مثلاً -
في نشيده عن الخمر والسكر :

« ليس في الغابات سكر من مدام او خيال ...
اعطني الناي وغني فالغنا خير الشراب
وانين الناي يبقى بعد ان تقفى الهضاب ،

لبنان الشاعر

وينهي الصوت الثاني بنشيد جميل يخاطب فيه الصوت
الاول فيقول في جملة ما يقول :

« هل تحممت بعطر وتنشفت بنور
وشربت الفجر خمرا في كؤوس من اثير ؟
... هل فرشت العشب ليلاً وتلحفت الفضا
زاهداً في ما سيأتي ناسياً ما قد مضى
وسكون الليل بحر موجه في مسعك
وبصدر الليل قلب خافق في مضجعتك ؟
اعطني الناي وغني وانس داء ودواء
انما الناس سطور كتبت لكن بماء »

واذن هو الزهد في الدنيا - زهد العارف القادر ، لا زهد
الجاهل الضعيف - كان يتوق اليه جبران فما يستطيع بلوغه ،
ولذلك عاد من تطوافه البعيد في الحياة وشؤونها بما يشبه
الحياة واليأس . فهو ينتهي بالقصيدة الى القرار التالي :

« العيش في الغاب والابام لو نظمت
في قبضتي لغدت في الغاب تنتثر
لكن هو الدهر في نفسي له أرب
فكلما رمت غاباً راح يعتذر
وللتقادير سبل لا تغيرها
والناس في عجزهم عن قصدهم قصرها »

صلاح لبكي

وانك لتعجب لجبران الذي كان يؤله الانسان ويقول ان
لا نهاية له ، كما رأيت في مؤلفاته السابقة وخاصة في « دمة
وابتسامة » ، كيف يجري قلمه في يده فيخط البيت الذي
مر بك :

« انما الناس سطور كتبت لكن بقاء »

وكيف ينتهي بك الى ذلك القرار من التشاؤم والاستسلام
للأقدار وهو النافخ في بوق التمرد والعصيان ؟

والحقيقة هي انه ليس في القصيدة ، على ما نظن ، لا تياران
متعاكسان ، ولا شيخ يساجل شاباً ، بل رأي في الخير
والشر والحياة والدين والعدل والحق كما تمثلها البشر وكما
مارسوها ، ودعوة الى البساطة التي يعلمنا اياها الغاب الذي
يمثل الطبيعة ، لأن كل ما في الوجود ، حتى الغاب نفسه ،
اي حتى الطبيعة نفسها ، ينتهي بان يتوحد في نعم خالد ،
ولا خالد من معاني الدنيا واشياؤها غيره .

وطبيعي ، وجبران هذه الفلسفة ، ان لا يحل افكاره
ومعانيه وعواطفه وصوره الا في عبارات تتسلسل أنغاماً ،
يطرب لها القلب وتفتح النفس .

ومن هنا هذان الترديد والتعاقب على المعنى الواحد
الشائع في آثاره ، واللذان عدما عليه أصحاب المدرسة

لبنان الشاعر

القديمة عيباً ، وحسبوا انها ناجحات عن استسلام الى مشيئة الهامه وغفو خاطره ، فلا تنقيح ولا صقل .

الترديد في انشاء جبران من خصائص الاسلوب . فجبران يتعمده تعمداً كاداة اخرى للتعبير عن تلك « المسافات الصامتة المرتعشة » وعن ذلك الذي « يبقى ساكناً هادئاً مستوحشاً » في روح الشاعر .

فضلاً عن ان التردد لا يأتي عنده بألفاظ واحدة . ونحن نعلم ان الترادف غير موجود وان لكل كلمة معنى تميز به عن اختها مهما تقاربنا فتعبّر الواحدة عن بعض ما في الشيء ، او الفكرة او الصورة ، وتعبّر الاخرى عن بعض ما لم تتوصل الاولي الى التعبير عنه . الحكاية هنا حكاية لطائف ودقائق ، لا حكاية أرقام ، ولا قصة معادلات جبرية . ومن هنا ان جبران اللغوي قال بأن الوسيلة الوحيدة لاجياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفثيه وبين اصابه ، « فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس الى عالم البحث ، وما يقرره عالم الفكر الى عالم الحفظ والتدوين » .

« الشاعر ابو اللغة وامها ، تسير حيناً يسير وتربض ايناً ربض ، واذا ما قضى جلست على قبره باكية منتجبة حتى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها » .

صلاح لبكي

« أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه ، فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد ، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون ، فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد ، وذلك الحائك الذي نسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون ، فيقوم من يدعو نسيجه هذا باسم جديد . »

« أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً ، والبناء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافتين بين بيوت كلها باب واحد ونافذة واحدة ، والصباغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها احد قبله فيستخرج لوناً جديداً ، فيأتي بعد الملاح والبناء والصباغ من يدعو ثمار اعمالهم باسماء جديدة ، فيضيف بذلك شراعاً الى سفينة اللغة ونافذة الى بيت اللغة ولوناً الى ثوب اللغة . »

« أعني بالشاعر ذلك المتعبّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجشو باكياً فرحاً نادباً مهلاً مصغياً مناجياً ، ثم يخرج وبين شفثيه ولسانه اسماء وافعال وحروف واشتقاقات جديدة لاشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم ، وأنواع انجذابه التي تتغير في كل ليلة ، فيضيف بعمله هذا وترّاً فضياً الى قيثارة اللغة وعوداً طيباً الى موقدها . »

لبنان الشاعر

اما اولئك المنصرفون الى نظم مواهبهم ونثرها فلم اقول :
ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء أثر
المتقدمين ، فخير لكم وللغة العربية ان تبنوا كوخاً حقيراً
من ذاتكم الوضيعة من ان تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم
المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد
المدح والثناء والتهنئة ، فخير لكم وللغة العربية ان تموتوا
مهملين محتقرين من ان تحرقوا قلوبكم بخوراً امام الأصاب
والأصنام .

تغيير اسلوب عن الرمزية

الا ان اسلوب جبران ، وان مهّد للرمزية ، لم يكن
رمزياً بالمعنى الذي نعرفه لها . انه اسلوب مجازي ، يعتمد
الاستعارة والكناية . فاذا شاء ان يعرف فكرة ، او ان
يعبر عن عاطفة ، حاول ان يوحى بها ايجاءً بواسطة الصور
المتوالية والاساطير ، متنكباً السلس والتفاصيل المنطقية .
جبران لا يرضى بالشعر الا مستلهماً يتولد على صفاء
المزاج الطبيعي وقوة مادة النور في النفس على حد تعبير
المسعودي . وهو بنظر الرمزيين نتيجة تمخض فكري وجهد
صبور عنيد ينحتونه نحتاً ويصقلونه صقلًا .

صلاح لبكي

جبران يتابع الفكرة ويحاول جلاءها بشتى وسائل التعبير حتى لتستقيم عند القارى. الواحد هي هي التي استقامت عند القارى. الآخر ، فاذا أوحى ، فانما بما أراد ان يوحى ، بفكرة في ذهنه او بعاطفة في قلبه ، لا بأقل ولا بأكثر ولا بما يجهل . انه يوحى ، على قدر المستطاع ، بما يريد ، لا بما يتخيل الى المطالع ، ولا بما يسمح به المطالع ومزاجه واستعداده وفطرته وخياله ، او بما تتفضل به المصادفات والعوارض . والرمزيون يحاولون اثاره حسّ ذاتي مبهم في السامع . اذ لا حاجة لفهم معنى الشعر بنظرهم . فالشعر المنبعث عن موسيقى الالبيات يؤثر في النفس تأثيراً مباشراً يوحى الى كل سامع فكرة خاصة متلائمة وحالته النفسية .

الرومنطبي

جبران رومنطبي أكثر منه رمزي ، تتحول عنده حتى الفكرة الفلسفية الى عاطفة جياشة يحسّها ويعاني أفراسها وآلامها ، ويعتبر عنها بجمرة .
جبران شاعر رومنطبي ، لا همّ له الا ان يعرض ذاته بسخاء . لقد طفق في داخله كليل الوجود حتى لم يبق له

لبنان الشاعر

من شاغل الا محتويات نفسه ، وتمددت نفسه لدرجة لم يعد يرى معها اصواتها ولا يسير الا مع أشواقها ومطامحها .

تتعدد ابطاله ولا بطل الآه ، فهو الشخص وتقيضه والصوت وصداه والعلّة والدواء ، هو الباكي المنتحب والمهلل الفرح ، والرجال والنساء في قصصه وحكاياته ورواياته ، هو تلك الجنية الساحرة وذلك الملك السجين وحفار القبور والشاعر البعلبي هو يوسف الفخري في العاصفة ، والشيطان في الشيطان ، وبولس الصلبان في الصلبان ، هو البنفسجة الطموحة في البنفسجة الطموحة ، وهو السفينة في الضباب ، هو نجيب رحمه وزين العابدين النهوندي وآمنة العلوية في ارم ذات العماد . « وكلهم نافر من المدنية ، نائم عليها ، يعيش في عالم غريب عن عالمنا بأهوائه وأفكاره وميوله » ، ويصبو الى ما وراء المحسوس ، هو الليل في ايها الليل ، وهو الارض في ايتها الارض .

وهناك خاصة اخرى تقرب جبران من الرومنطيقية وهي هذه الكآبة الشائعة في آثاره . والناشئة من نظراته الى الوجود ومن تبرمه بعجزه عن تعميم نظراته واشفاقه على من لم يتوصلوا الى ما توصل هو اليه من معرفة .

اما نظراته الى الوجود فتمثلت في حكاية البنفسجة الطموحة . وخلاصتها ان بنفسجة رفعت رأسها ونظرت حولها فرأت وردة تتناول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس

صلاح لبكي

يتسامى متشائماً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من
الزمرّد . فتوسلت الى الطبيعة ان تجعلها وردة ولو يوماً واحداً .
فصحت الطبيعة البنفسجة ان تتخلى عن احلامها ، ولكنها ،
لدى الاخاح ، اجابت طلبها . فحوّلتها الى وردة زاهية
متعالية فوق الازهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار ، تلبّد الفضاء بغيوم سوداء
مبطنّة بالاعصار ، ثم هاجت سواكن الوجود ، فكسرت
الأغصان ولوت الانصاب واقتلعت الأزهار الشائخة ، ولم
تبق الا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالارض او تحتبيء
بين الصخور ...

فرفعت مملكة البنفسج قامتها ومدّت اوراقها ونادت
رفيقاتها قائلة : انظرن الى البنفسجة التي غرّتها المطامع فتحوّلت
الى وردة لتتسامخ ساعة ثم هبطت الى الحضيض .

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة
وبصوت منقطع قالت : لقد كان بإمكانني الانصراف عن
المطامع والزهد في الامور التي تعلق بطبيعتها على طبيعي
ولكنني أصغيت الى سكونة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول
هذا العالم انا القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود .

« انا اموت الآن . اموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس
بنفسجة من قبلي . اموت وانا عالمة بما وراء المحدود الذي

لبنان الشاعر

ولدت فيه . وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالي .

فهذا الطموح الى ما وراء الوجود لمعرفة ما وراء المحدود « هو البقطة وهي العاطفة تمبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجنأ كل ما يخالفها ، كارهأ كل شيء لا يجارها متمرداً على الذين لا يتفهمون اسرارها ، ولكنها استغراب واستهجان وكره وتمرد مغمورة بالهبة كما هي مغمورة بالكآبة والمرارة الناتجتين عن عمق الهبة وتامها .

وأخيراً فان من مميزات الرومنطيقية عند جبران نظره الى الطبيعة نظرة تتجاوز افق المشاهدات الى كنه الاشياء ومناجاته اياها مناجاته لحي بحسّ وبشعر ويفكر ويجنو ويعطف ويبهز ويخلب .

فهو شاعر الليل ، له فيه من الأناشيد ما لا أروع ولا أبداع :
« يا ليلَ العشاق والشعراء والمنشدين ،
يا ليلَ الاشباح والارواح والاخيلة ،
يا ليلَ الشوق والصبابة والتذكار .

ايها الجبار الواقف بين أقزام عيوب المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوج بالعمر ، المتشع بثوب السكوت ، الناظر بالف عين الى أعماق الحياة ، المصغي بالف اذن الى انة الموت والعدم .

صلاح لبكي

انت عادل يجمع بين جنحي الكرى أحلام الضعفاء بأمانى
الأقوياء ، وانت شقوق يغمض باصابعه الحفية أجفان التعساء
ويحمل قلوبهم الى عالم أقل قساوة من هذا العالم .

لقد صحبتك ايها الليل حتى صرت شبيهاً بك ، والفتك
حتى تمازجت اميالي بامبالك ، واحبيتك حتى تحول وجداني
الى صورة مصغرة لوجودك ، ففي نفسي المظلمة كواكب
متلعة ينثرها الوجد عند المساء وتلتقطها الهواجس في الصباح ،
وفي قلبي الرقيب قمر يسعى تارة في فضاء متلبد بالغيوم
وطوراً في خلاء مغمم بمواكب الاحلام . وفي روعي الساهرة
سكينة تبيع بمفاعيلها سرائر المعجبين ، وترجع خلاياها حدى
صلوات المتعبدين ، وحول رأسي غلاف من السحر تمزقه
حشرة المنازعين ثم تحيطه أغاني المنشيين .

انا ليل مسترسل منبسط هاديء مضطرب ، وليس لظمتي
بده ، وليس لاعماقي نهاية . فاذا ما انتصبت الارواح متباهية
بنور افراحها تتعالى روعي متجمدة بظلام كآبتها .
انا مثلك ايها الليل ، ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي :

هو شاعر الليل :

في اغنية الليل

«سكن الليل ، وفي ثوب السكون تختبي الاحلام

لبنان الشاعر

وسعى البدر وللبدر عيون
فتعالى يا ابنة الحقل نزور
علنا نطفي بذباك العصور
اسمعي البلبل ما بين الحقول
في فضاء نفخت فيه التلول
لا تخافي يا فتاتي ، فالنجوم
وضباب الليل في تلك الكروم
لا تخافي فعروس الجن في
هجمت سكرى وكادت تخنفي
ومليك الجن ان مرّ يروح
فهو مثلي عاشق كيف يروح

وهو شاعر الارض :

« ما أجملك ايتها الارض وما أجاك
ما أتمّ امتالك للنور وأنبل خضوعك للشمس
ما اظرفك متشحة بالظل وما املح وجهك مقنعاً بالدجى
ما اعذب اغاني بحرك وما اهول تهايل مسائك
ما اكملك ايتها الارض وما اسناك

ما اكرمك ايتها الارض وما اطول اناك
نحن نضج وانت تضحكين
نحن نذهب وانت تكفرين

صلاح لبكي

نحن نجدف وانت تباركين
نحن نتجسس وانت تقدسين
نحن نهجع ولا نحلم وانت تحملين في سهرك السرمدى
انت ايتها الارض ، انت بصري وبصيرتي ، انت جوعي
وعطشي ، انت ألمي وسروري انت غفلي وانتباهي
انت الجمال في عيني والشوق في قلبي والحلوى في روحي
انت انا ، ايتها الارض ، فلو لم أكن لما كنت .

وهو شاعر البحر :

« في سكوت الليل لما تنثني
يقظة الانسان من خلف الحجاب
يصرخ الغاب انا العزم الذي
انبثته الشمس من قلب التراب
غير ان البحر يبقى ساكناً
قائلاً في نفسه الرمز لي

ويقول الصخر : ان الدهر قد
شادني رمزاً الى يوم الحساب
غير ان البحر يبقى صامتاً
قائلاً في نفسه الرمز لي

ويقول الريح : ما أغربني
فاصلاً بين سديم ومساء

لبنان الشاعر

غير ان البحر يبقى ساكناً
قائلاً في نفسه الريح لي

ويقول النهر : ما اعذبني
مشرباً يروي من الارض الظما
غير ان البحر يبقى صامتاً
قائلاً في ذاته النهر لي

ويقول الطود : اني قائم
ما اقام النجم في صدر الفلك
غير ان البحر يبقى هادئاً
قائلاً في نفسه الطود لي

ويقول الفكر : اني ملك
ليس في العالم غيري من ملك
غير ان البحر يبقى هاجعاً
قائلاً في نومه الكل لي ،

هذا هو جبران الذي غمر أدبه الشعر العربي الحديث
في لبنان بنفحة ما كان قد حلم قبله بمثلها ، بنفحة تعاونت
والثقافة الغربية على مهر شعرنا المعاصر بطابع خاص ، هذا
هو ينبوع الجديد الذي تتغلغل كل يوم مياهه في النفوس
فتوقظ فكراً جديدة ، وصوراً جديدة ، واساليب جديدة ،
حتى لا يعرف لتوالدها نهاية .

الشعر المجرى
الرابطة القلمية - العصبة الاندلسية

لم يكن جبران الشاعر اللبناني الوحيد الذي أحدثت آثاره ونواحي تفكيره قشعريرة في الشعر العربي الحديث في لبنان ولو كان قد استأثر بمجد السابق والمعتم . ان لاءضاء الرابطة القلمية والعصبة الاندلسية فضلهم الجليل على تحرير الشعر من التقاليد المتحجرة التي ضيقت آفاقه وفرضت أساليب القدماء وتفكيرهم وشعورهم .

الرابطة ثورة على الوقوفين امتلأت صدور أكثر اعضائها بالآداب العالمية الحديثة المتنوعة ، فأدركوا ان الادب الحق انما هو ابداع ، وان خلود الآثار لا يتأمن الا بما تتضمن من طرائف قيمة مضافة الى ثلاثد الاختبارات الموثوقة . واحسوا الى جانب هذا بسلاسل التقليد التي كانت تهبط الاجنحة وتعقم الفكر . وكانت النفحة الجبرانية قد لفحت الجباه وأضرمت النفوس وبهرت العيون وأعظمت شأن الرسالة التي لا بد من تأديتها ولو بشق النفس .

احتجبت مجلة الفنون ، التي كان يصدرها نسيب عريضة

صلاح لبكي

قبيل الحرب العالمية الاولى ، وقد كانت ، في مدة ما ، ملتقى الأقلام المتعطشة الى الأدب الحي ، فتوكت فراغاً ؛ وبدأ الادباء يتحولون الى السائح ، وهي جريدة نصف اسبوعية لعبد المسيح حدّاد ، فينشرون فيها بعض ما تنتجه قرائحهم ويتناولون في مكاتبها شؤون الأدب والفن بأحاديث التشويق الى آفاق لم تبلغ بعد . وفي العشرين من نيسان ١٩٢٠ أجبنا صاحب السائح واخوانه في ادارة المجلة ليسة ضمت جبران خليل جبران ونسيب عريضة ومخايل النعيمي ووليم كاتسفليس ورشيد ابوب وعبدالمسيح حدّاد وندره حدّاد ، تقرر فيها تأليف رابطة ووضع قانون لها بمحدّد أهدافها . وفي الثامن والعشرين منه عقد الاجتماع الثاني في منزل جبران وتقرر :

ان تدعى الرابطة « الرابطة القلمية »

ان يكون لها عميد ومستشار وخازن

ان يكون اعضاؤها عاملين فمناصرين فمرسلين .

وان تهتم بنشر مؤلفات عمّالها ومؤلفات سواهم من كتاب العربية المستحقين وبترجمة المؤلفات الهامة من الآداب الاجنبية .

وان تعطي جوائز مالية في الشعر والنثر والترجمة تشجيعاً للادباء . ثم انتخبوا باجماع الاصوات جبران خليل جبران

لبنان الشاعر

عميداً ، وميخائيل نعيمة مستشاراً ووليم كاتسغليس خازناً .
وانضم الى الرابطة فيما بعد الشاعر ايليا ابو ماضي .

ابتداءً من ذلك التاريخ راح اعضاء الرابطة ينشرون
مقالاتهم في الجرائد والمجلات ويذيلونها بأسمائهم متبوعة بعبارة
« العامل في الرابطة القلمية » ، ويصدرون من جريدة « السائح »
في رأس كل سنة عدداً ممتازاً زاخراً بمقالاتهم . وأخذ اسم
الرابطة بالانتشار في جميع الأقطار العربية ، وراح الادباء
على اختلاف منازلهم يحسبون لها حساباً ويترقبون صدور
مجموعاتها فيتلقفونها بشوق ولذة . وما زالت تنمو وتردهر الى
ان بدأ الزمن يشقت الرفاق او يصرعهم الواحد تلو الآخر .

العصبة الاندلسية

عندما بدأ عقد الرابطة بالانقراط وبردت الحمية التي اطلقت
صيحة الجهاد وفت البذور الاولى في الحواضر الادبية العربية
وانتجت ما يرجى منها تطلعاً الى الافضل وابداعاً ، برزت
كتلة اخرى في القارة الاميركية الجنوبية مؤلفة من نخبة
ممتازة ومضت تنسج على منوال الشماليين سعياً وراء الابداع
برغم الاختلاف على التفاصيل . انتظم الجنوبيون في جمعية
أطلقوا عليها اسم « العصبة الاندلسية » عام ١٩٣٣ .

صلاح لبكي

فأصدرت سنة ١٩٣٥ مجلة شهرية باسم العصبة كان لها أثر بتين في تشجيع الحركة الادبية والانتاج الصحيح لا بين اعضائها وحسب بل بين جميع ادباء المهجر .

ولقد عنيت العصبة الاندلسية عناية خاصة بمعالجة مشكلة اللغة ، لما أحست احساس الكثيرين من ادباء العرب بالحاجة الى تعديل رئيسي يقضي على الشوائب التي علفت بها ويعيدها الى سابق عهدها . ذلك ان الاديب ، شاعرآ كان ام ناثراً ، يجد اليوم نفسه ، بحسب رأياها ، امام احد امرين : اما النزول الى مستوى العامة ، وفي نزوله بلبلة بسبب تعدد اللهجات في الاقطار العربية وتقصير هذه اللهجات عن الابانة عما في دقائق الحواطر ؛ واما برفع العامة الى مستواه . وكلا الامرين محال . فرأت العصبة ، كما رأى من قبل بعض اعضاء الرابطة القلمية ، ان اللغة العربية بحاجة الى ترميم شامل يتناول قواعدها وحروفها وحركاتها لثلاثي اثاراً تاريخياً قيمته في قدميته لا في مادته ونفعه . فقواعد اللغة المتشعبة التي يعجز الذهن البشري عن الامام بها ، وحروفها المتنافرة حجماً وشكلاً ، وحركاتها التي لا تضبط الا بمعرفة معنى الكلمة وصيغتها ، كل هذه كانت ولا تزال العوامل الرئيسية في جمود اللغة واجفال حتى ابناءها عن تعلمها . غير ان هذا الترميم - كما أسماه رئيس تحرير العصبة الاستاذ حبيب مسعود - ليس

لبنان الشاعر

يعني اهمال التراث القديم والثروات الأدبية التي تحتويها خزائن الأدب العربي ، ونبذ كل قديم بل هو يعني وجوب تهذيب اللغة ونشذيب زوائدها وضبط قواعدها وتسهيل صيغتها وجلاء غوامضها وتشريع ابوابها لدخول كل من وضع جديد او لفظ مستحدث ، وهو يعني من حيث التجديد الأدبي ان يصوغ الأديب لنفسه اسلوباً خاصاً ويخلق جواً لتفكيره . وكان اعضاء العصابة يستشهدون بجبران للتدليل على الابداع واختراع الاساليب والصور المستحدثة فيرون انه ، وان كان قد تمرّد احياناً على سيبويه وجماعته ، قد ابتدع ، نهجاً طريفاً في كتابته وخلق عالماً خاصاً به . فولولة الرياح ، وعويل الهاوية ، وصراخ الكهوف وغيرها من هذا الطراز ان هي الا تشابه طريفة لا عهد للعربية بها . ومن هنا دعوتهم الى الاقتداء بعبيد الرابطة القلمية من حيث الخروج عن المألوف توصلًا الى المبتكر . اما موقفهم من الشعر فمضطرب . انهم لا يتقيدون باصول محدودة ، بل يطلقون للشعراء قيادهم ، وان نصحوهم بالاقلاع عن المستخنت الذي يثبط الهمم ويوهي الأعصاب ويضعف الايمان بالحياة . وفي رأيهم ان الشعر لا يلم به تحديد ولا يقع تحت قياس . نوخذ بروعته ونفثن بسحره ، ولكننا لا نعرف للافتنان والسحر والروعة سبباً غير ما وقع في نفوسنا من اثر تلك الروعة وهذا السحر . اما الآفاق الجديدة التي يشيرون على الشعراء بارتبادهما فهي

صلاح لبكي

جمال الحياة ، وجلاء روائع الطبيعة ، لانها مبعث الالهام والفننة . وعلى العموم فانهم يدعون الى ادب تجري فيه حياة العزم والعمل والاقدام والتضحية مطاوعة للناموس العام في اندفاعه المطرد . وينددون بالأدب المتواكل الحامل الذي يستدرج الى المسكنة والوهن .

انه لمن الهموم التي تكل عندها العقول ايجاد تحديد يشمل بصورة مطلقة أدب جميع الذين ينتسبون الى مدرسة أدبية ما . اذ لكل أديب مزاجه وانفعالاته وانطباعته . الادب (استندار) ليس ادبياً . الا ان هنالك من الخطوط العامة ما يمكن اتخاذها قياساً . وبحسبنا في تحديد المدرسة الشعرية المهجرية ان نستخلص هذه الخطوط العامة التي تتجلى في نتاج أبرز أعضائها .

أول ما يميز الشعر المهجري كونه مستمداً من صميم الحياة حتى ليخيل بنا متدفقاً على طلاقة الينبوع السخي .

قال النعيمي : « الشعر هو غلبة النور على الظلمة ، والحق على الباطل ، وهو ترنيمة البلبل . ونوح الورق ، وخرير الجدول وقصف الرعد ، هو ابتسامة الطفل ودمعة التكلي . وتورد وجنة العذراء وتجمد وجه الشيخ . هو جمال البقاء وبقاء الجمال . الشعر - لذة التمتع بالحياة ، والرعدة امام وجه الموت . هو الحب والبغض ، والتعيم والشقاء . هو صرخة

لبنان الشاعر

البائس وقهقهة السكران ولهفة الضعيف وعجب القوي . الشعر
ميل جارف وحنين دائم الى ارض لم نعرفها ولن نعرفها .
هو انجذاب ايد لمعانقة الكون بامرره والاتحاد مع كل ما في
الكون من جماد ونبات وحيوان . هو الذات الروحية تتمدد
حتى تلامس اطرافها اطراف الذات العالمية . وبالاجمال ،
فالشعر هو الحياة باكية وضاحكة ، وناطقة وصامتة ، مولولة
ومهللة ، وشاكية ومسبحة ، ومقبلة ومدبرة .

اما المؤثرات التي وجهت الشعر المهجري فعديدة متشابهة،
نذكر منها بخاصة ، عدا الانفتاح على آفاق جدد ، حس
الاغتراب وما يثير من حنين الى الأهل ، ومرابع الصبا ،
وما يبعث من شوق . يرى الشاعر نفسه مستوحداً في محيط
مادي جبّار تخنق فيه جميعه الدوايب انة المحروم وتحجب
كثافة البخار دموعه ، فيعود الى نفسه يشاكيها ، والى قلبه
يستنفد عبّره غصة الأعماق . فالشعر عنده حاجة حتمية ،
حاجة المستوحش الى أنيس ، فكان من الطبيعي أن يأتي هذا
النتاج عذباً صريحاً لانه صرخة قلب ، او نشوة فآل ، او
زفرة نفس او خطف تأمل عميق .

وليس ما بي يارب داء ولا احتياجي الى دواء
ولا حنيني الى القناني ولا اشتياقي الى الطباء
ولا اريد الذي لغيري ذا حكمة كان ام مضاء

صلاح لبكي

لكن أمنية بنفسي يسترها الخوف والحياء !
فقال : يا شاعرآ عجيبا قل لي اذن ما الذي تشاء !
فقلت : يارب فصل صيف في ارض لبنان او شتاء
فانني ههنا غريب وليس في غربة ههنا !
فاستضحك الله من كلامي وقال : هذا هو الغباء
لبنان ارض ككل ارض وناسه والورى سواء
وفيه بؤسى وفيه نعي واردياء واتقياء
فأي شيء تشتاق فيه ؟ فقلت : ما سرني وساء
تحن نفسي الى السواقي الى الاقاصي ، الى الشذاء
الى الروابي تعرى وتكسى الى العصافير والغناء
الى العناقيد والدوالي والماء والنور والهواء
فأشرف الله من علاه يشهد « لبنان » في المساء
فقال : ما انت ذو جنون وانما انت ذو وفاء
فان لبنان ليس طودا ولا بلادآ ، لكن سماء
ابليا ابو ماضي

وهذه الغربة عندهم ليست غربة عن وطن وأهل ، بل
غربة عن الناس وعن الدنيا . والحنين الذي تثيره حنين الى
موطن مجهول مغمور بالأحلام .

فاذا ترنم جبران :

« انا غريب في هذا العالم . انا غريب ، وفي الغربة وحده »

لبنان الشاعر

قاسية ووحشة موجعة تجعلني أفكر أبداً بوطن سحري لا
أعرفه ، وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني .

أنشد النعيمي :

وسنبقى في انتقال وعذاب
وصعود وهبوط ، وذهاب وإياب
وسنبقى نهجع الليل وفي الصبح نفيق
ربنا نلقى منا ، ربنا نلقى الطريق

وردّ أبو ماضي :

وقال : ليس التراب دارا للشعر ، فارجع الى السماء

وتنهّد القروي ، رشيد سليم الخوري :

ما البرازيل مهجري ليس لبنان لي حمى
ان نفسي غريبة تشكي البعد فيها
انا ما دمت في الثرى وبعيداً عن السما
مهجتي كلها جوى كبدي كلها حنين
ابدأ اشتكي النوى دأبي النوح والأنين

وتشاهم فوزي المعلوف :

هو بالرغم عنه من عالم الارض
وان كان تزيًا بشكل ابناء جنسه

صلاح لبكي

سكن الارض مرغماً وهو لو
خير ما اختار غير ظلمة رسمه

شعراء المهجر غرباء في الدنيا ، ناثرون على كيانهم الترابي .
انهم لفي مثل صراع دائم مع أنفسهم ، لا تشبعهم الحياة ولا
تكاد تتحقق لهم فيها امنية حتى يلج بهم شوق جديد الى
اللا محدود فتقسو الغربة وتستأنف المأساة سيرتها الاولى :

حتى اذا اقترب المراد تُطلى رواء بالسواد
فيعود أعمى لا يقاد الا بعكاز الحنين

انهم يحاولون ، على الطريقة الوجودية ، ان يستثمروا
حياتهم الى أقصى حد . ولكن واحدهم لا يلبث ان يعود
صفر البدن يرنحه السأم ويجز به اليأس .

وشربت بنت الكرم احسب راحتي
فيها فطاش الظن والتقدير
فكأنني فلك وهت امراسها
وبالبحر يطغى حولها ويشور
حامت على روعي الشكوك كأنها
وكانهن فريسة وصقور
ولقد لجأت الى الرجاء فعقني
اما الجبال فخائب مدحور

لبنان الشاعر

يا ليل ابن النور ؟ اني تائه
لم ينبثق ، ام ليس عندك نور ؟
ابليا ابو ماضي

وينتهي به الطواف الى هذا الاستنتاج المرير :

لا جوعها يشبع لا موتها يجمع
لا طامع يقنع فيها ولا الزاهدون

النعيم

الا ان شعراء المهجر ولئن جمعهم هذا القلق المبهم وهذه
الغربة عن الدنيا فقد تفاوتت نظرتهم الى الحياة .

منهم المتشائم الالادري الذي يرى في الحياة فناء ، فلا
شر بعدها ولا خير .

ومنهم المتشائم المؤمن الذي لا يلبث ان يستسلم الى احلام
الحياة الابدية التي وُعد بها المؤمنون .

ومنهم المتشائم الحلوي النائم على الدنيا لانها لا تحقق مناه
المتعالي عن كل مجد وعن كل لذة .

فمخايل النعيمه في تشاؤمه يرى الانسان

ضريراً اصماً ابكماً متجلبباً بجهله وضعفه ، دون علم
وادراك . نصائح افكاره تمويه وصدقها حبة من القمح في
اكداس تبن واحساك .

صلاح لبكي

ولكنه لا يشكو ولا يتبرم لان الايام لا ترحم ولا
تصفي الى افات الاسبى والشقاء .

ذمك الايام لا ينفعك فهي لا اذن لها تسمعك
لا ولا عين ترى عقربا في دياجير الاسبى تلتصقك
لا ولا قلب يرق وان جف من طول البكا مدمعك

فالايام عنده كالطبيعة بنظر الفرد ده فيني « خالة »
جائرة (Marâtre) لا ترى ولا تسمع ولا ترق .

فلا عزاء اذن للانسان الا في هذه الحلولية الكونية
الشاملة التي يرد اليها الشاعر مصدر الكائنات .

كحل لهم عيني بشعاع من ضياك
كي تراك

في جميع الخلق في دود القبور في نسور الجو في موج البحار
في صهاريج البراري في الزهور في الكلا في التبر في رمل القفار

اما ابو ماضي فقد كان لجاورته جبران ونعبه أثر بين في
الحواطر العميقة التي ذخرت بها قصائده . ولكنه مع هذا
لم يستسلم لتيار الصوفية . ولم يفرق في عوالم الحلولية ،
وغيوبات الانجذاب ولم يتلاشى في وحدة الوجود ، ولم ينته
الى ذلك الايثار الذي يدفع الى افناء النفس في سبيل اي

لبنان الشاعر

كأن آخر ، ولم يقف من الانسانية موقف « النبي » الذي يكشف حجب المستقبل فيقرر حقائق وعقائد ، ويضع نظاماً للسلوك والاخلاق . وانما ظلّ وسط الآراء التي تدارستها الرابطة ، مؤمناً بواقعية الحياة في هذه الدنيا ، متردداً طويلاً بين الايمان والكفر بالعالم الثاني ، شاكاً في كل ما انتهى اليه الناس من نتائج . يلقي ابدأ اسئلة تعصف بالعقل وتوهن قواه ، وتبدي له عجزه عن ادراك الاسباب البعيدة . لهذا فان جبران ونعيمه ، على الرغم من الوشائج الفنية التي ربطتهما بالشاعر ، واتفاقهما وايه على ضرورة التجديد ونقض الاساليب اللفظية والمعنوية المتحجرة المتوارثة ، لم يكونا ينظران اليه نظرها الى رفيق مؤمن بانجذابها المتمايزيقي . على ان حرية المعتقد كانت شرطاً اساسياً في الرابطة ، فلا ضغط ولا اكراه ، وانما احترام متبادل ، ومناقشة حرة تنجلي في النهاية عن تعيين المواقف وتحديد المعتقدات الفردية المتباينة . واننا لنجد أثر هذا الانطلاق الفني والفكري في المقدمة التي صاغها نعيمه للجدال حيث يقول : « ولا يندر ان اجد لذة حتى في قصيدة لا تأتلف مع اهوائي ومنازعي كقصيدة «بردي يا سحب» ، لاني ، وان كنت انكر على نفسي ان تقول :

كل نجم لا اهتداء به لا ابالي لاح او غربا

صلاح لبكو

لا انكره على ابي ماضي ، بل اعجب بقوة بيانه لمعتقده
اذا كان ذلك ما يعتقده .

كان تشاؤم ابي ماضي في اول الامر معتدلاً متردداً
مصدره ما يشاهد من شقاء الفضائل ونعيم الرذائل ، ومن هذا
التفاوت في المقامات بين الناس القائم على اسس فاسدة ، ومن
هذا القدر الذي يسوق للمرء غير ما يستحقه ، فيشقيه ويعذبه
ويذيقه ضروب الحرمان ، ومن هذا الانسان الذي تكبله الرغبات
بقيودها ، فيشتهي منها القصي المستحيل حتى اذا بلغه كرهه
وقلاه ، ومن هذا الكذب المرتدي ثياب الصدق والصدقة ،
والقبح المتجلبب بحلل الجمال . يدفعه هذا التشاؤم الى اثره
هدامة ، والى الاستهانة بالناس واحتجاز الملذات لنفسه ، كما
يحتجز الطفل كل ما يقع في متناوله لينفرد به دون الآخرين .
ولعل في قصيدته بردي ياسحب اصدق شاهد على ما تقدم :

كل نجم لا اعتداء به لا ابالي لاح او غربا
كل نهر لا ارتواء به لا ابالي سال او نضبا
اسقني الصهباء ان حضرت ثم صف لي الكأس والحببا
لبس يرويني مقالك لي انها العقيات منسكبا

ولكنه لا يطيل المكث في هذه الدائرة الضيقة ، ولا
يتركز نظره في هذه العيوب البشرية . بل ينتقل الى آفاق
ارحب ، فيشاهد الرواناً فاتنة ، وصوراً رائعة من الجمال ،

لبنان الشاعر

ويرى ان الاخذ والاثرة والانكماش ليست ناموساً راسخاً
في النفوس . وهكذا تنطلق نفسه الضاحكة على سجيبتها فيروح
يدعو من يجب الى التمتع بالحياة قبل الغروب ، والى التمثلي
من خريف الجداول ، واريح الازهار ، والتمتع برأى الشهب
في الافلاك قبل ان تغيب هذه المشاهد الرائعة عن عيوننا
الترابية :

لتكن حياتك كلها املاً جميلاً طيباً
ولتملأ الاحلام نفسك في الكهولة والصبي ...

ثم يستقبل الحياة في الدنيا بخيرها وشرها ، اما ما وراها
فضباب بنظرة . وانه من الخطأ أن نضيع ما في يدنا ولا
نتمتع به الى أقصى حدّ ، والا نتذوق الجمال والخير ، والا
نملأ قلوبنا غبطة ونشوة . واما القضايا الفلسفية التي أفلقت
المفكرين والشعراء من أقدم العصور ، فانه يسوقها في « الطلاسم »
مقياً عليها بعبارة : « لست ادري » ، فكأننا به يعهد الى
سواه بأمر تحليلها ، واكتشاف أسبابها ومسبباتها ، وجلاء
غامضها ، كقضية مصدر الحياة ، وحرية الانسان ، وسرّ
الموت . له ان ينعم بما يتيسر من افويق العيش ، وعلى
الحكماء ان يفنوا ايامهم في حل طلاسمه .

ثم تستقر في ذهنه فكرة الفناء بعد الموت . هذه الحياة
لا شر بعدها ولا خير .

صلاح لبكي

قالت وقد سلخ ابتسامتها الاسبى :
صدق الذي قال - الحياة غرور !
اكذا نموت وتنقضي احلامنا
في لحظة والى التراب نصير ?
وتموج ديدان الثرى في اكبد
كانت تموج بها المنى وتمور
خير اذن منا الالى لم يولدوا
ومن الانام جلامد وصخور
ومن العيون مكاحل ومرارود
ومن الشفاه مساحق وذرور
ومن القلوب الخافقات صباية
قصب لوقع الريح فيه صفير !

الا ان الشاعر يتجدد بالخود بانغامه ويبقى بعد العدم !!

لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا
فلنا اياك بعده ونشور
انا سنبقى بعد ان يمضي الورى
ويزول هذا العالم المنظور
فالجب نور خالد متجدد
لا ينطوي الا لبسطع نور

لبنان الشاعر

وبنو الهوى احلامهم ورؤاهم
لا اعين ومراسف ونحور
فاذا طوتنا الارض عن ازهارها
وخلا الدجى منا وفيه بدور
فسترجعين خميلة معطارة
انا في ذراعا بلبل مسحور
يشدو لها ويطير في جنباتها
فتش اذ يشدو وحين يطير

من مبدأ العدمية ، هذا المبدأ الذي يفترض نكران كل
مذهب وكل دين ، يدعو ابو ماضي الى التمتع بالحياة وملذاتها
حتى النالة وكأنه يستوحى رباعيات الشاعر الفارسي عمر
بن الحيام :

دنيا مزيفة ودهر مارق ما في انفلاتك منها من باس
ان اللذات التي ضيعتها رجعت اليك عصاره في الكاس
فاصبح رؤاك بها تعد ذهبية عطرية الالوان والانفاس
واخلق لنفسك بالمدامة جنة ، في الاربع المهجورة الادراس
الحب فيها بلبل وخميلة وندى واضواء على الاغراس
للقصر يخلفه خيالك روعة كالقصر من جذر ومن اساس

اما التشاؤم المؤمن فيمثله الشاعر القروي . فهو اذا ما
انشد في ثورة يأسه :

صلاح لبكي

هل بينكم من راحم قاتل يزحزح الايام عن كاهلي
يقذف بي في درك اللج لا يلفظني موج الى ساحل
لا يلبث ان يتطلع الى السماء وان تتجاوب في نفسه
أصداء الاجراس من آفاق كسروان وبلاد جبيل فيستسلم
الى عدل الله ويخضع مطمئناً سعيداً :

ان فانك الحبز فلك آية وانهم يموت المؤمن الآمل
غدا لك الخلد فما ضر ان لم تأكل اليوم مع الاكل
قبل يد الظالم قسراً ولا تعتب على خالقه العادل
هل كانت الآلام مذقودت الا نصيب الرجل الفاضل
فلنحمد المولى على نعمة خصت بنا من فضله الشامل
ابليس، بامسكين! متغيرة فالصلب حظ البشر الكامل
ولنقل بعد هذا التطواف ان الشعر المهجري شعر انساني
يتعدى حدود الوجدانية الذاتية ليتصل بالشعور البشري العام.
فالذات التي يعبر عنها ليست مغلقة بل هي ذات شفاقة
تراهى من خلالها كل ذات عانت مأساة مماثلة .

يقول النعيمي : « ليس الشاعر من يخلق العواطف ويولد
فكراً فليس من يخلق شيئاً من لا شيء الا الله . انا الشاعر
من يد اصابع وحيه الخفية الى اغشية قلوبكم وافكاركم
فيرفع جانباً منها ويجول ابصاركم الى ما انطوى تحتها .
فتبصرون هناك عواطف وتعدون على افكار . ولأول وهلة

لبنان الشاعر

نحسبونها أفكار الشاعر وعواطفه ولكنها في الحقيقة عواطفكم
وأفكاركم لم يكتشفها الشاعر ولا ابتدعها ، ولا انعتها . لكنه
رفع جانباً من الستار عنها وصوب كل ابصاركم اليها . ثم
ترككم وابها تستجلون الوانها وتتفحصون معانيها .

فالشعر المهجري في البوح والبث والذكرى والحنين ،
وشعور الغربة في الارض ، والشوق المبهم المحموم ، والثورة ،
والتحسس بالطبيعة ، وفي كل المواضيع الذاتية التي عاجلها شعر
رومنطيسي خالص النزعة .

الا انه ينبغي لنا الملاحظة هنا ان جمال المرأة ، اذا
استثنينا آثار جبران ، ظلّ غائباً عنه بينما كان لهذا الجمال
أثره البالغ عند الرومنطيقين الغربيين ، اوحى اليهم قطعاً
رائعة ، من بحيرة لامرتين الى لبالي موسيه ، الى (لارا) بيرون
الى اولمبيو هوغو .

وهو شعر رومنطيسي باختياره النعوت البراقة الصارخة التي
تعبّر عن خوالج النفس بشكل محسوس ، وبتقصي النغم
المتوافق في اللفظة والحسن المعبر عنه ، وبالنزعة الى تحطيم
القيود الشعرية .

غير ان المدرسة المهجرية ولئن كانت قد عنيت باللفظة
التي تتجسد صورة ملموسة ، اي وان كانت قد عنيت باللفظة

صلاح لبكي

من حيث تعبيرها الموضوعي ورنتها المجانسة، فانها قد أهملت طاقتها الابدائية تلك التي قام عليها مجد المدرسة الرمزية في ما بعد .

الشاعر المهجري همس ، نعم همس ويفسر ، همس ، كيف اقول ، همس عالياً ، وبوضوح ايضاحاً خطائياً . انه لا يوسم ولا يوحى .

وهو بعد يفرق تفريقاً نابياً بين الجوهر والشكل ، بين المعنى والمبنى ، فيضحى الثاني مرتاحاً للاستيقاء على سلامة الأول حتى لينحط شعره احياناً الى مستوى النثر الردي .

واني لأعجب كيف أثبت أديبنا الكبير مخايل النعيمه هذه الابيات على انها شعر :

غداً اردت هبات الناس للناس
وعن غنهم استغني بافلامي
واسترد رهوناً لي بذمتهم
فقد رهنتم لهم فكري واحسامي
ورحت انجر في اسواق كسبهم
فما كسبت سوى هم ووسواس
وكم فتحت لهم قلبي فما لبثوا
أن نصبوا بعلمهم في قدس اقداسي

لبنان الشاعر

ولا اي نسب يجد الياس فرحات بين الشعر وهذه الايات :

يقولون عن اخذت الفريض
ومن تعلمت نظم الدرر
واين درست العروض ؟ وكيف
تلقيت هذا البيان الاغر
وما كنت يوماً بطالب علم
فانا عرفناك منذ الصغر

والشعر المهجري ولئن يكن قد تحرر اجمالاً من ابواب
الفريض التقليدية : من باب الهجاء ، وباب المديح ، وباب
الثناء ، فانه ظلّ عبد الصور الجامدة والاستعارات والكتابات
البدائية . ان النفحة الجبرانية لم تبلغ فيه مداها . على
ان شعراء المهجر قد حاولوا محاكاة الاندلسيين في تطوير
الشعر وتليين أوزانه وتخطيم قيوده وتنويع قوافيه . ولقد
يكون لانسلاخ هؤلاء واولئك عن الجو الشرقي ولانصاهم
بالجو الغربي ما دفع بهم جميعاً الى مثل هذه المحاولات .

بقيت المآخذ وهي كثيرة لا يفيد في التهوين من امرها
ما ذهب اليه الدكتور محمد مندور في الميزان الجديد
حيث قال :

« وننظر في اللفظة فتعرض لنا مشكلة هي :

أخذنا على شعراء المهجر ما نسميه ضعف العربية في

صلاح لبكي

الاسلوب ، وهذه تهمة يجب ان نفلح عنها ، لانني ، كلما
امعنت النظر في الفاظهم وتراكيبهم ، لم اجد لها مثيلاً في
شعرنا الحديث ، من حيث الدقة والقدرة على اثاره الاحساس .
نعم قد يخطئون في النحو او الصرف ، ولكن هذه في نظري
اشياء نادرة لها نظائرها عند اكبر الكتاب ، والى اليوم
لا يزال الفرنسيون يضربون المثل بفلتير في الخطأ والاملاء .
وانما يعيب الاسلوب عدم التحديد او العجز عن الاجزاء ،
وتلك عيوب لا وجود لها في شعرهم . اما استخدامهم للالفاظ
المألوفة فلست ارى فيه موضع ضعف بل قوة وذلك لان
الالفاظ المألوفة ، ولا اقول المبتذلة ، هي التي تستطيع في
الغالب ان تستنفذ احساس الشاعر ، كما انها أقدر من الالفاظ
المهجورة على دفع مشاعرنا الى التداعي ، وقد كثر استعمالنا
لها في الحياة فتحدت معانيها ، وتلونت من نفوسنا . فحملت
شحنة عاطفية وهذه صفات من اولى خصائص الاسلوب
الشعري ، بل اسلوب الادب بوجه عام .

فهذه المأخذ هي التي يراها الدكتور طه حسين في حديث
له على الجداول لاني ماضي قال :

« ولست أزعم ان لغة الشاعر رديئة او منكرة ، ولكنها
تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك ان تغل فيها ايغلاً .
وليكن مصدر ذلك ما يكون . ولكنه شيء واقع لا

لبنان الشاعر

نستطيع الا ان نلاحظه ونسجله آسفين . ذلك ان الشاعر
مجيد حقاً خطب الذهن نافذ البصيرة ذكي القلب متقن الفهم
لما يريد ان يقول ، موفق الى اجادة التصوير لما يجب ان
يصور ، فكان خليقاً ان تواتبه مع هذه الحلال نعمة صافية
عذبة تعينه على إظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال
ليس الى الشك فيها من سبيل ، ولعل الشاعر نفسه آنس
هذا لضعف في لغته . ولعله حاول ان يصححه فلم يستطع .
ولعله لما استيأس من هذا الاصلاح لم يجد بداً من ان يتخذ
هذا الضعف مذهباً .

وهذه المآخذ هي التي جعلت جبران يقول في فصل عقده
على شعراء المهجر :

« ما انا من المتعنتين ، لكن يعزّ عليّ ان ارى لغة
الارواح تتناقلها السنة الاغبياء ... ولست منفرداً في وهدة
الاستياء ...

ولا عذر لنا ... سوى ان عصرنا هذا قد كثرت فيه
قلقة الحديد وضجيج المعامل ، فجاه شعرنا ثقيلاً ضخماً
كالقطارات ومزعجاً كصفير البخار .

« وانتم ايها الشعراء الحقيقيون ساحبونا ، فنحن من العالم
الجديد نركض وراء الماديات . فالشعر عندنا صار مادة
تتناقلها الايدي ولا تدري بها النفوس . »

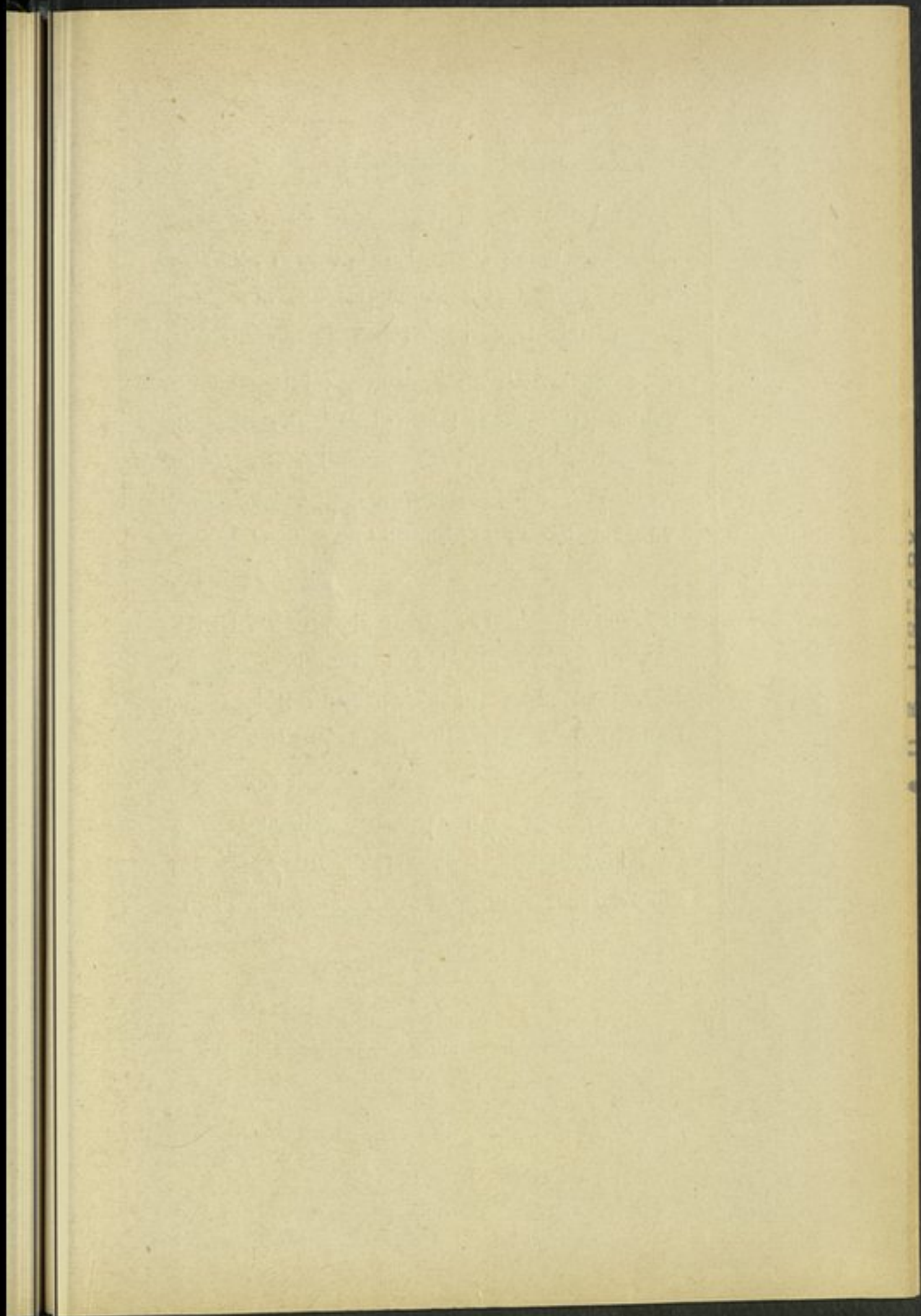
صلاح لبكي

ونحن نرى ان أكثر شعراء المهجر ، لما استياسوا من هذا الاصلاح ، لم يجدوا بدءاً من ان يتخذوا هذا الضعف مذهباً . وآية ذلك فصل للاستاذ مخايل نعييه في الغربال ، تحت عنوان « ضفادع الادب » ، جاء فيه ما هذا نصه :

« ان شأننا مع ضفادع الادب لشأن غريب عجيب يطالعون ما نكتب فيقولون « نعمنا الافكار ونعمنا العواطف ونعمنا الاسلوب . لكن ... اللغة » ، كأننا في ما نكتب او ننظم نلقي عليهم درساً في اللغة . وكأن لا هم لنا من النظم الا ان نتحاشى الحطف والاشباع واستعمال تخمم بدلاً من استحم » .

الا ان الاستهتار بالقواعد اللغوية وبموسيقى الاوزان وبرنة القوافي ينحط بالشعر عن منزلة الجمال . وبديهي ان عنصر الجمال هو اول عناصر الفن . والجمال لا يشرق الا معتمداً على ركنيه المعنوي والشكلي ، فاذا تداعى احدهما انهار البناء الجميل كله .

ولولا ان المجيدين من شعراء المهجر قد تفادوا الركاكة والعبث بحرم اللغة والاوزان والقوافي ما استطاعوا ، لما جاز لنا التحدث عن شعرهم ولو جاز التوقف عند نزعاتهم الفكرية .



الرّومنيقيّة في لبّنان

يصعب على المنقّب الباحث ان يعين التواريخ الفاصلة لانتهاء عهد ولقيام عهد ، لاختراق مذهب أدبي ولنشوء مذهب آخر . اذ ليست المظاهر التي تلفت اليها النظر ، سواء في الحركات الاجتماعية والسياسية والفكرية ، الا نتيجة لتطور وتفاعل بطيئين خفيين ولتفكير عميق في هداة الوحدة والانفراد . ان شأن هذه الحركات لا يختلف عن شأن مخلوق ، فهو لا تبدأ حياته بنظر التاريخ والمؤرخين الا من يوم مولده . على ان يوم الولادة ليس الا نتيجة الحبل به والا نتيجة أشواق وحنين ومعاناة أفراس وآلام بعيدة وقريبة .

وقد لا يتناول التاريخ أحياناً من الحياة الا مراحل النضج والاكتمال متجاهلاً او جاهلاً مراحل الطفولة والاكتمال والتردد والمحاولة والتلمس ، فتبدو الأحداث الكاملة التي استأثرت بالعناية وكأنما هي الثورة منقطعة عما سلف ، منقطعة عن ذاتها قبل ان تنجلي وتتجلى .

ولقد يبدو الواحد أحياناً مع امتداده في منزلة الضدّ

صلاح لبكي

من الضدّ ، فلا نلمس نحن الا الذروات بين ابتداء ونهاية ،
ولا نحفل الا بالالوان البارزة ، حارة هنا وباردة هناك ،
او باردة هنا وحارة هناك ، غير آبهين لما يتوسط الذروتين
من حزن وسهل ، من روابٍ ومنخفضات ، ولا بستلم الالوان
المتدرج بين طرفي العتمة والنور والصارخ .

ولست لأزعم ان بوسعي الكشف عن كنه ما تمّ في
هذه الفترة التي تخللت بلوغ الشعر في لبنات ذروة المفهوم
الاخطلي مع الاخطل الصغير واظلاله ، وظهور مفهومين آخرين
له في آن معاً : الرومنطبيقي والرمزي .

لست لأزعم انه بوسعي مفاجأة هذه الفترات الفاصلة التي
ادخلت تبديلاً محسوساً على المفاهيم القديمة ، على المفاهيم المسيطرة .
من هو بوجه الضبط هذا الشاعر الذي بدأ يستخلص من
الموجود الشعري موجوداً آخر مختلفاً عنه من غير ان يكون
ردة عليه ؟ اية هي القصيدة التي انبلجت عن خلجات جديدة
هبة فاتحة فكانت نقطة الانطلاق الى مسارح لم يحلم بها قبل ؟
من هو الجندي المجهول هذا ؟ وكم هو عدد الجنود
المجهولين الذين سقطوا في اول المعركة فلم يدركوا زهوة النصر
الذي احرزته مبادرتهم الشجاعة ؟

ثم ألا يجوز ان يكون هذا الجندي المجهول ، هذا
الشاعر الفاتح ، الا يجوز ان يكون القائد نفسه الذي استهدف

لبنان الشاعر

الفتح الانتصار عليه ؟ الا يجوز ان يكون ، وعلى غير ما علم او قصد منه ، المنتصر على نفسه ، المنتصر والمنكسر معاً ؟
قد يجد المنقبون غداً ان المفهوم الاخطي للشعر في لبنان هو نفسه ابو الرومنطيقية والرمزية فيه ، او قد يقررون انها ردة عليه ونقيضان له ، او قد يقررون بعد ان احدهما ردة على الآخر .

الا انه ، ومن غير ما قطع في شيء من هذه الامور ، ينبغي لنا ان نواجه بالاعتبار الواقع السياسي الذي جعل لبنان بعد سنة ١٩٢٠ أوثق اتصالاً بالغرب وبفرنسا على الاخص ، وجعل المدارس الفرنسية فيه المدارس المفضلة ، وأتاح لسياسة التوسع الثقافي الفرنسية ، هذه السياسة التي تؤلف اجمل ما في تراثها الانساني ، ان تتبسط وتعمل .

يقول عمر فاخوري في مقدمة وضعها للقصص المهجور ، اول دواوين يوسف غصوب : « الادب العربي بين امرين لا ثالث لهما اما ان يظلّ محافظاً يجبا بمادته ، متآكلاً مجترأ ، ويعيد نفسه كرجع الصدى ، ويتقمص رجاله بعضهم بعضاً . واما ... بل ثمة أمر واحد لا مناص منه ، هو ما نراه وما ليس لاحد في دفعه يدان . نعني التبديل الطارىء على ادبنا الحديث ، بفعل عناصر خارجية اجنبية . ليس الادب العربي جزيرة في عرض الاوقيانوس تنتظر كولومبوس ، ولا روحنا

صلاح لبكي

صخرة تتحطم عليها هذه الثقافات الغربية الجائحة الفاتحة الهاثة المائجة . واذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها ، فأين نجعل أدبنا كي لا يناله تبديل ؟ هو هذا الطوفان ، ولا «عاصم اليوم» .

ومن هنا ان الشعر في لبنان وفي حدود العشر سنوات التي انقضت بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ تأثر بجمل الشعر الفرنسي ، فاذا بين الشعراء الطالعين من انفعال بالرومنطيين واذا منهم من انفعال بالرمزيين . فالمذهبان ظهرا معاً وتواكبا ، لم يتقدم احدهما الآخر ، ولا كان احدهما ردة في وجه الآخر . بل بدوا وكأنهما ردة على الادب المسيطر ، أدب المحضرين .

في الطليعة فرسان ثلاثة : اديب مظهر ، يوسف غصوب ، الياس ابو شبكة .

ولا اتحدث عن رفيقي الياس ابي شبكه الاستاذين الشيخ خليل تقي الدين وميشال ابي شهلا ، لان الكلام على ابي شبكه وعلى مفاهيمه للشعر يتناولهما من ناحية ، ولان انتاجهما الشعري من ناحية اخرى أقل من انتاجه بما استأثرت السياسة بتقي الدين واستهواه التأليف في القصة ، وبما صرفت الصحافة ابا شهلا الا في ما ندر عن الشعر ، ولان احداً منهما لم يجمع حتى اليوم شعره الذي بقي اما مطويماً في درج او منشوراً في بعض المجلات الادبية .

لبنان الشاعر

قلت في الطلبة فرسان ثلاثة : اديب مظهر ، ويوسف
غصوب ، والياس ابو شبكه :

تأثر الاولات بالرمزية ، وتأثر الثالث بالرومنطيقية .
واذا تناولنا شعر الياس ابو شبكه بالبحث اولاً ، فلأن
الرومنطيقية تجلّت فيه بأكمل وأتم مظاهرها ، ولأن تفتح
الرمزية تأخر عشر سنوات ، لسبب وفاة ممثلها مظهر سنة ١٩٢٨
قبل ان تكتمل شاعريته ويؤتي كل ثماره ، ولأن يوسف
غصوب ظلّ بالنتيجة حائراً بين النزعتين تتجادبانه .

فالتأخير والتقديم يقررهما هنا ، بالاضافة الى كونها
ضروريين لتسهيل البحث ، الواقع التاريخي .

ولولا هذا الواقع ، لولا هذا التنازع بين المذهبين في
الوقت الذي كان دعواتها يصمّون خصومهم المحضمين بالتقليد،
لما كنا نفهم قول الياس ابي شبكه : « مشاريع النظريات التي
جاءنا بها بول فالري خلقت في الادب العربي جيلاً مضعضعاً » ،
ولما كنا نجد ، وهو الجاحد بالنظريات ، يخوض معتركها .

فما هو مفهومه للشعر ؟

ليست المسألة عنده مسألة نظريات . فالنظريات مذاهب
وأغراض لا تعيش الا على هامش الادب ، كما يعيش العرّض
على هامش الجوهر .

صلاح لبكي

والشعر كأنّ حيّ نحتشد فيه الطبيعة والحياة ، قال :
« كلنا كاذبون الا الطبيعة والشاعر ، فالطبيعة هي أمّ الحياة ، والشاعر هو ابن الطبيعة خالقة الحياة . والحياة هي فوضى منظمة ، لها ثورات امها ، ولها غضبها وفحشها وطمانيتها وهدوؤها ، ولكل من هذه الثورات والغضب والفحش والطمانينة والهدوء نظام لا يد فيه لدعوى الناس واصطلاحاتهم وتقاليدهم . »

« كلنا كاذبون الا الطبيعة والشاعر ، فالطبيعة تنكر صواعقها ورجومها لأنها لا تتنكر على نفسها ، والشاعر ينكر فحشه لأنه لا يتنكر على نفسه ، والنفس نقية قدرة ، بريئة ومجرمة ، وهذه البراءة وهذا الاجرام ظهورهما في لسان الشاعر أشدّ جلاء منه في لسان ايّ امرئ آخر ، لان الشاعر اذا أنشد فانما ينشد نفسه عارية لا تسترها الاراجيف ولا يحنطها الرباء ، ومن الحرق ان ندعي للشاعر طينة غير طينة الناس ، او ان نتقاضاه ليونة في موضع الحشونة ، لان آذاننا التقليدية لا تستلذها . على ان في الشاعر شعلة سرية غامضة موزعة على هذه الطينة وهي معها في صراع مستمر . »

وإذا كان قد أبدى رأيه النظري فبمعرض رده على النظريين انه يتنكر لقول بول فالري : « اذا آمن الشاعر بالوحي قتل الابداع . ان الشاعر من يستطيع النظم ساعة

لبنان الشاعر

يشاء ، ومن الحُطل القول بان الشاعر منفعل لا فاعل .
ويرى ان الوحي « حالة من حالات النفس عند تأثرها المباشر
بقدره خارقة ، واية غضاضة على الشاعر ان يكون وسبباً
لهذه القدرة الخارقة ؟ فالانبياء كانوا يتسقطون كلام الله ،
والقدرة الخارقة ليست منفصلة عن الانسان فمي جوهر نفسه .
ولا يصح انزال الشاعر منزلة النجار او الحداد يقبل على
عمله ساعة يحين موعد العمل او ساعة يريد العمل فيكون
فاعلاً لا منفعلاً .

والشعر عاطفة . « وايمان هو هذا الشاعر الذي يصطنع
العاطفة ليعطيك كل ساعة انتاجاً ، كالنجار يعطيك الخزانة
في الوقت المنفق عليه . »

انه يرى من الحرق الفاضح ان نكتفي من الشعر
بموسيقاه ، ونقدم فيه وصف ما لا يوصف على سائر عناصره .
للشعر عناصر متساوية يجب ان تجري كلها في حلبة واحدة ،
فلا تنحط الفكرة عن الموسيقى او الصورة عن الفكرة .

وهو يرد على التخير الصناعي في الاخراج بقوله : « ان
الشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة ، فله من شعوره
الزاهر ما يصرفه عن هذه الالهية . وعندني ان الشعر ينزل
مرتدياً ثوبه الكامل ، وهذا الشعر جزء من الشعور لا يتجزأ . »

صلاح لبيك

على انه يشترط لذلك ثقافة عند الشاعر ورقياً وذوقاً موسيقياً متغلغلاً في أعماق روحه .

اما التشاؤم العميق الذي يستولي عادة على الشعراء ، هذا التشاؤم الذي يجيل ان الياس ابا شبكة يشترط وجوده في الشعر ، فانما مرده بزعمه « الى التأثير الخيب لتقلب الحياة في هذا العالم ، اذ ندرك في الحال ان من العبث والجهد الضائع التثبت في البحث عن الحقيقة المطلقة الثابتة وراء مظهر الوجود المتقلب ، وعندئذ يغمرنا هذا الادراك بكآبة عميقة » .
الشاعر ملهم . والطبيعة ام الحياة ملهمته . فهو لسانها ونبيا بين الناس .

هذه هي نظرة ابي شبكة الى الشعر .

فهل كان وفيماً لها ؟

نعم وفوق ما تتصور .

ان قوة الشاعر الذاتية التي تشع من قصائده ، وعنف الاحساس الذي يصبغ اغانيه ، والرؤى التي تكتنف كل بيت من ابياته ، وهذا الجو البائس الذي يغمر كل آثاره لتهتف بوفائه لمفاهيمه الشعرية وتجعل منه شاعراً رومنطيقياً خالصاً . ورومنطيقية ابي شبكة ليست تقليداً او محاكاة . فهو، وان كان قد قضى حياته مسحوراً بالادب الفرنسي لا ينظر

لبنان الشاعر

الى الادب العالمي الا من خلاله ، لم يقلد ولم يكن مديناً
الا الى مزاجه الموزع بين العنف والرفقة ، والصحة والمرض ،
والبراءة والاثم ، والى كبرياته المنتصبة مارداً جباراً في وجه
عواصف البؤس والشقاء .

فهذا المزاج الفريد هو الذي حمله على ان يختار لنفسه
مقاماً بين صفوف الرومنطيقين الفرنسيين وكأنه واحد
منهم ، لا كدخيل عليهم متلمذ لهم ، فاسج على منوالهم ،
معترف من مجورهم ، حتى ليصح القول فيه : انه لو لم توجد
الرومنطيقية قبله لاوجدتها هو .

من مميزات الرومنطيقية : عرض الذات ، فالشاعر ، كما
يقول هو نفسه ، اذا أنشد فانما ينشد نفسه عارية لا تسترها
الاراجيف ولا يحنطها الرباء . وليس في كل شعر ابي شبكة ،
من « القيثارة » الى « أفاعي الفردوس » ، الى « غلواء » ،
الى « نداء القلب » ، حتى « الى الابد » ، غير حكاية قلب ،
هو قلبه ، وغير عرض مسهب لاحتاسيسه : حبه وألمه وبؤسه
وشقائه وسعادته . عبثاً نبعث في هذه الآثار عن غير
الباس ابي شبكه ، وعن غير حبيباته ونجاربه .

ومن ميزاتها هذه الرؤى التي تكاد تكون مَرَضِيَّة . وشعر
ابي شبكة ، ولاسيما في « غلواء » ، يعج بها :

صلاح لبكي

وانتقلَ انتقالة عجيبة من الم الروح الى غيبوبه
كشعلة في نفسه مشبوبة
طوراً يرى غلواء في صباها تشع في وجدانه عيناه
معقودة الحس على رباها
وتارة في كفن ملتفه يسرح الموت عليها كفه
بجسرة عاصفة ولهفه
بارزة من فمها الاسنان مزرقة كأنها ديدان
واللثة الحمراء زعفرانه
وجن في دماغه العروق
فأبصرَ المريضة المحتضرة مسدولة الذوائب المبعثرة
جنبة هائلة في مقبره
وحل في اهدابه تابوت في قلبه صبيبة تموت

في جوف تلك اللبلة الباردة كأنها ضمائر جاحده
تخطر فيها فكرة حاقده
وللرياح الهوج بين الورق عزف كأن الجن فيه زعق
فمزق الارواح ثم انطلق

لبنان الشاعر

اذا به في الحجرة المظلمة يصفي الى حشرجة مؤلمه
بين خفوق القلب والتمتمه
ورأى في قلب الدجى والدّه يغم في شفاقة صاعده
من صلب تلك الليلة الباردة
كأنها ، وهي تشق القتام لوحه فجر في قطار الظلام
او ومضة من شعله مبهمه

وقصيدة « القاذورة » في أفاعي الفردوس سلسلة من الرؤى
المحمومة هذه .

ومن ميزات الرومانطيقية تمجيدها للألم . وقد لا تخلو
قصيدة لابي شبكة من هذا التمجيد ومن التغني بعبقرية الألم:
قدم القلب خمرة الاقلام ، وفي القلب مهبط الالهام ، والقوافي
زخرف ان لم يُغمس القلم في قرارة الآلام :

اجرح القلب واسق شعرك منه
قدم القلب خمرة الاقلام
مصدر الصدق في الشعور هو القلب
وفي القلب مهبط الالهام
واذا انت لم تعذب وتغمس
قلماً في قرارة الآلام
فقوافيك زخرف ويريق
كعظام في مدفن من رخام

صلاح لبكي

ربّ جرحٍ قد صار ينبوع شعري
تلتقي عنده النفوس الظوامي
وزفير أمسي ، اذا قدسته الروح ،
ضرباً من اقدس الانعام
وعذابٍ قد فاح منه بخور
خالد في بحار الاحلام
من ليس يرقى ذروة الجلاله
ولم يُسرّ في الهوى أنمله
ويُرفع العلقم والحل له
من لم يذق في الحبز طعم الالم
ولم يعكر وجنتيه السقم
وتسلخ الاوجاع منه حطم
لن يعرف العمر شعاع الاله
ولن يرى آمله في رواه
بل عالماً يخبط في مهزله

يا حبّ عذب	عذب فؤادي
لهب عروقي	إطفي رشادي
وهات سهدي	وخذ رقادي

ومن مميزات الرومنطيقية تقديسها للتوبة والغفران ، وهذه
الميزة متغلغلة في الكثير من مقطوعات ابي شبكه وقصائده ،

لبنان الشاعر

فهو مؤمن بالله يهابه ويرجوه ويفزع اليه في الشدائد .
انه في قصيدته الدينونة يتخوف الجحيم ويصبح في وجه
ابليس :

حوّل خيالك عني ولا تخيم عليا
فليس اهلك مني ولا اللظى في يديا
لم اغشّ في الناس مأثم ولم انا دم رجالك
ابليس ليست جهنم داري فحوّل خيالك

وهو في الصلاة الحمراء يصعد من اعماق قلبه :
ربّاه عفوك اني كافر جان
جوّعت نفسي واشبعت الهوى الفاني
تبعث في الناس اهواء محرّمة
وقلت للناس قولاً عنه تنهاني

- وهذا الحبيب

- غفرت له ويعفو الهك عما بدر
غفرت كما غفرت في الربيع زهور الربى لشتاء كفر

ومن مميزات الرومنطيقية تغنيها ببراءة الفلاحين .
ولابي شبكة اغانٍ كثيرة في الفلاح وبراءته أورد منها هذه
من غلواء :

صلاح لبكي

وتناوت عيناه في الشفق الاخضر
 يجرث الارض هادئاً مطمئناً
 قال : طوبى له وطوبى لنفسه
 ما اعز الاعشاب حول سواقيه
 لا يرى غير حقله ان اطل الفجر
 جاهل يجهل القراءة في الاسفار
 غده مثل يومه، ليس يغشاه شقاء،
 فأنحطتا على فلاح
 فيشق الاتلام كالجرارح
 ما أذ الصفاء في ماء كأسه
 واغناه في قناعة بؤسه
 او اقبل المسا غير انسه
 لكنه حكيم بفأسه
 ويومه مثل امه
 ليت لي قلبه الخلي
 ليت في مقلتي لي
 فارى الصبح ينجلي
 ذهبي مكلل
 وارى الله كلما
 ان فيها لمن سما
 ليت في الروح لي نقاه
 مقلتيه... واحسرتاه
 عن شعاع من الخلي
 بلجين من المياه
 ارسل الطرف في السما
 بالتقى صورة الاله

اما الطبيعة، الطبيعة اللبنانية، والحياة اللبنانية، وما
 يرافقها في القرى من عادات بريئة مستحبة فقد غشاها ابو شبكة
 كما لم يغنيها أحد من قبله :

صغيرة بين الدول
 كانت لنا ولم تزل
 زلالها تراق
 وشمسها ذهب
 بعيدة مثل الامل
 بلادنا
 تراها اخلاق

لبنان الشاعر

غنى الشتاء :

امطري واعصفي وارقصي واعزفي
واخلقي الجمال وانسجي الحبال

غنى :

القمح في اعدالنا ... والزيت في قلالنا ...
والتين في السلال ...

غنى :

الوجاق والموقدة ... والصاج ...
والجرن والمهباج ... والنور في السراج ...

غنى :

النبيذ العتيق ... في الحاييه ...
وذلك الابريق هيش في الزاويه ...
والترجس المستفيق في الآنيه ...
والرفش والمعولا والموسم المقبل ...

غنى ، غنى ، فما بيع له صوت حتى خبا .

ووالله ما في اليتيم كيتيم هذه الاشياء خلدها ويطمها !.

قلت ان ابا شبكة زعيم الرومنطيقين في لبنان ؛ فهو
وان لم يكن قلد رومنطريقي فرنسا تقليداً ، الا انه شاركهم

صلاح لبكي

في كل مميزات الرومنطيقية ولو اختلفت وجهة نظره احياناً
عن وجهة نظرهم .

شاركهم اولاً في الخاصة الشائعه بينهم جميعاً ، في عرض
الذات ، في هذا البوح والبث ، في هذا الهمس على حد
تعبير الدكتور محمد مندور ، ، ثم شاركهم في بعض نظرتهم
الى الطبيعة التي كساها من احساسه واسبغ عليها من انقاسه
وانخذها مسرحاً لآلامه واحلامه ، وان لم يكن قد رأى
فيها كما رأوا أما رؤوفاً حنوناً تشاطرنا الافراح والاتراح .

شارك «موسه» نظرتة الى الالم المبدع المنقذ . وشارك
«قيني» تشاؤمه ولو كان قد خالفه في التفاته الى الله ، اذ
ان قيني كان يرى فيه الهاً قاسياً لا يتحرك لصراخ الانسان ،
بينما رأى فيه ابو شبكة الهاً شفوفاً غفوراً فرفع اليه صلوات
حارة عميقة الابتهاال . وشارك «لامرتين» اطمئنانه الى الطبيعة ،
وتغنى مثله بالقرية والفلاح والجبل والسهل والوادي .

ولقد توقف ادباؤنا وشعراؤنا عند «أفاعي الفردوس» .

قال ميخائيل النعيمي :

« لا ارى شاعرنا بلغ قمة شاعريته الا في أفاعي الفردوس ،
فهذه المجموعة هي بحق تحفة نادرة في شعرنا العربي . وما
أعرف شاعراً من شعراء عهدنا الجديد يستطيع ان يأتي بمثلها
او يدانيتها في وصف الشهوات الجسدية الجالحة » .

لبنان الشاعر

وقال يوسف غصوب :

« اما المكان الذي شغله في الشعر اللبناني والذي كان شاعراً فهو ذلك اللون القاتم ، ان لم نقل الاسود ، الذي استقل به ابو شبكة في « افاعي الفردوس » ، فهو وجهة من الشعر قلّ من اتجها من شعرائنا . وقد ذهب فيها مذهباً بعيداً محتدياً بامامها « بودليو » ، وأجاد ما شاء . فترى عنده روعة المشاهد ومئاته السبك وسخط الانبياء وتردد النفس بين الشر والخير . وتكاد تشمّ منها رائحة العهر وتلمس موضع الشفقة وتحسّ ما يتأجج في صدر الشاعر من نار ملتبهة .

الا اننا لا نرى ما راوه من نسب بين ابني شبكة وبودليو برغم تشابه اجواء الافاعي وأزهار الشرّ ، بل نحن أميل الى رأي صديق الشاعر ورفيقه ومشذب شعره في اوّل عهده بالقريض ، الاستاذ عبدالله حود . « اذ لا نسب بين أفاعي الفردوس وأزهار الشرّ ، لا في طريقة الصياغة والنظم ولا في المواضيع ولا في شيء ، الا العنف . على ان هذا العنف قد استقاه ابو شبكة من أدب التوراة ، الذي كان متأثراً به تأثراً كبيراً ، حتى لقد قيل انه كان رسول هذا الأدب في العالم العربي . والتوراة في كثير من أسفارها أعنف كتاب أدبي عرفه البشر . »

نعم ان مواضيع أفاعي الفردوس مقتبسة على الغالب من

صلاح لبكي

التوراة (شمشون وسدوم) ، وان صورها وتشابيحها مستعارة منها : هذه حية عدن ، وورود الشارون ، وبؤر القذارة ، والضمير المدود .

ان التوراة كانت احدى المراحل الحامية في تأثيرات ابي شبكة الأدبية . وكل الظن انه اهتدى الى هذا المنبع الفياض عن طريق الشعراء الرومنطبيين الذين كانوا يرون فيه اعذب موارد الالهام وأعظمها فيضاً .

ولعل الفرد ده ثيني - صاحب القصيدة الرائعة « غضب شمشون » و « موسى » في العهد القديم - كان ممن حبّب الى ابي شبكة أدب التوراة .

الا انه هنا ايضاً لا يشتهي مقتنى غيره ، كما يقول الاستاذ مارون عبود ، فيقطع منه ما استطاع . انه ينحو نحو الفرد ده ثيني في استيحاءه التوراة ، فيستوحياها مباشرة في منابعها لا عن طريق صاحبه .

ويبقى بعد هذا الطواف ان نلاحظ بُعد الشقة بين هذا الشعر الطافح بالوجدانية ، بالبوح والبث والحنين والغضب والتلهف والشهوة والتجديف والتوبة ، وذلك الشعر الوصفي الذي سبقه .

اننا لا نقع في شعر ابي شبكة على أقلّ وصف للجسد.

لبنان الشاعر

هنا ما تُثير الحبيبة لا الحبيبة . هنا لا عيون المعنى
تلتصع ، ولا عنق الغزال يشرب ، ولا الفصن يتأيل ، ولا
الرمان ينهد ، ولا التفاح يهش . لا تكورات ولا استدارات
ولا ارداف ولا نهود ، بل شعور يتدفق فيضاً سخياً .

الياس ابو شبيكة جبار صارع الحياة مصارعة مكرساً
نفسه للشعر ، وفيأ له « ولقد كان من الحرص والغيرة على
كرامة الشعر بحيث ينفر نفرته العصبية لدى ايسر احساس
منه بادخال شاعريته مدخل انتفاع او تكسب^(١) » .

وهو لم يعترف لا للناس ولا لنفسه بانكسار ، الا هذه
العبارة قالها للشيخ فؤاد حبيش ، وقد جاءه عائدآ مشجعاً
قبل ان يلفظ نفسه الاخير بيوم واحد :

« عصفور صغير . طار ، طار ، وهبط ... ما يستطيع
عصفور صغير » .

عصفور صغير . غفر الله له . بل نسر قوي الجناح لم
يلحق به من الشعراء الرومنطيقين في لبنان احد .



(١) زئيف خوري .

المدرسة الرمزية

انطلقت شرارة الرمزية في لبنان مشعشة مع « نشيد

السكون » . وهي قصيدة لأديب مظهر . فنشيد السكون
تؤلف بحق مطلع عهد ادبي جديد ، وان يكن تفشح الرمزية
بأكمل مظاهرها قد تأخر الى ما بعد سنة ١٩٣٦ ، الى يوم
راح سعيد عقل ينشر نظرياته وشعره .

ولقد أحدث نشرها ضوضاء في الاوساط الأدبية وحتى
في الصحف اليومية ، ظلت تتجاوب أصداؤها طويلاً ، وبقيت
الضعيفة عليها تطلّ كتباً اشتمت للرمزية ساعد وكلما ظهر من
اتباعها شادن جديد تعقد عليه الآمال ويخشى ان يكون له
من العبقرية ما يشدّ لها ازراً او ما يوطد لها مقاماً ، حتى
ان الياس ابا شبيكه ، هذا الذي ما كانت كبرياؤه ولا ثقته
بأدبه لتسمح له بان يحسد أحداً على نعمة او على جاه ، ولا
كانت نقاوة طويته لتجيز له التحامل على احد ، عاد ، بعد
عشرين سنة من نشر قصيدة اديب مظهر ، يذكرها في
« روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة » بما ينم بأثر
جرح بليغ .

قال :

« وفيما الشعراء يضطربون في هذه المحنة (والحديث له على أثر المهجريين) سقط بين يدي أديب مظهر مجموعة من الشعر للشاعر الفرنسي البيرو سامان فالتهمها ، وكثيراً ما كنت أسمعه يردّد هذا البيت :

Le séraphin des soirs passe le long des brises

وبعد قليل ، طلع علينا أديب بقصيدته الرمزية « النسيم الاسود » واتبعها بطائفة مثلها ، ولم يكن يخطر في بال أحد ان هذه القصائد ستكون فاتحة عهد شوّم في الشعر الرمزي . سوى ان قصائد أديب مظهر لم تفعل فعلها الا بعد مرور سنوات . ففي العام ١٩٣٣ تفشى هذا الوباء في الناشئة ، فاتجهت من الشعر الروحاني الصوفي (وهو يقصد الأثر المهجري) الى الشعر الرمزي كما فهمته ، او بالأحرى الى الجانب المريض من هذا الادب . وكما سقط ألبير سامان بين يدي أديب مظهر سقط بول فاليري بين ايديها ، فتأثرته الى حدّ الاسراف ، وراحت تدور في زوبعته حتى داخت .

اما هذه القصيدة - التي تؤرخ بداية عهد الرمزية ، والتي يذكرها ابوشبكه باسم غير اسمها ، فيسميها باسم تعبير من تعابيرها ، بالتعبير الذي أثار أكثر ما أثار الدهش والعجب والنقمة عند نقاد ذلك الزمن ، اي « النسيم الاسود » -

لبنان الشاعر

فانها تستحق ان نستعيد منها ولو مقطعة الاول :
اعد على نفسي نشيد السكون حلوا كمر النسم الاسود
واستبدل الانات بالادمع واسمع عزيف اليأس في اضلعي
واستيقني بالله يا منشدي

فالليل سكران وانفاسه تفتح اجفاني . واحلامي
تنساب حولي زفرة زفرة حاملة اكفان ابامي
بالله هلا نغم قائم على بقايا الوتر الدامي
فان في أعماق روحي صدى مثل ديب الموت بين الجفون
أكلما هزك تذكراها بكيت تحنان الصبا الأول
صحبت في الوادي خيال الطيوب مرافقاً رفرقة الجدول
تفر أحلامي على نسمة نحيمة معسولة المبسم
فتنحني فوق بساط المغيب وترتمي

فيا لتحنان الصبا الاول

وكيف لا تقوم القيامة وكل ما في هذه القصيدة خروج
على المنطق ، منطق الكثافة ، منطق المادة . كل ما فيها
خروج على الملموس والمسوع والمنظور ، اذ كيف يظل
السكوت سكرتاً وله نشيد ، ومن رأى نسيماً اسوداً ،
ومن سمع لليأس عزيفاً ؛

وهذا النغم القائم ،

وهذا الصدى في أعماق الروح ،

صلاح لبكي

وهذا الدبيب للموت بين الجفون ،
وهذا الحيال للطيوب ،
وهذه النسمة المعسولة المبسم ،
وهذه الاحلام المنسابة زفرات ،
هذه المجردات المشبهة بمجردات والتي لا تزيدنا علماً بالشيء ،
كل هذه الجدة ، كل هذه الصور الغريبة ، الناشئة عن
المألوف ، الثائرة على قواعد الاسباب والمسببات والمقدمات
والنتائج ، كيف لا تصدع الافهام المطمئنة الى الموضوعات
المألوفة المقررة كأنها كلمة العلم الاخيرة ونهاية المعرفة .

فلما نشر يوسف غصوب مجموعة من شعره « القفص المهجور »
في أوائل سنة ١٩٢٨ استقبلها أصحاب الضوضاء بشيء من
الترحيب والارتياح ، ولم يُثروهم قول الاستاذ عمر فاخوري
في مقدمته لها :

« من آثار الادب العربي في شعر يوسف غصوب هذه
الوحدة معنى ومبنى التي يجدها القارىء (في المجموعة) وليست
الوحدة بما يباهي الادب العربي به آداب الامم الاخرى .
« وبعد فان « القفص المهجور » حادت أدبي ذو شأن .
زهرة نضرة في هذه الايام الجديدة ، في بيداؤ حياتنا الادبية . »

لبنان الشاعر

ولقد نفّس عنهم ورزأ الشعر في لبنان كون أديب مظهر
توفّي في آب ١٩٢٨ .

فضلاً عن ان يوسف غصوب لم يجرح المألوفَ جرحاً
بليغاً ، بل ظلّ على العتبة من الرمزية ، وفي منتصف الطريق
من الرومنطيقية ، لا اسراف هنا ولا توغل هناك .

ليوسف غصوب مقالٌ عنوانه « حان للأدب ان ينعتق
من قيوده » ، تحدّث فيه عن مواضيع الشعر وعن وجوب
تطور أساليبه ، متخذاً من مقاييس الرمزيين مقياسه . على
انه لم يتعمد في إنتاجه احترامَ المقاييس التي دعا اليها ودان
ها ، الا ما حاوله في العوسجة الملتهبة . وكان من أمر
محاولة هذه ان الأثر الذي تركه الادبُ الرومنطقي في
شاعريته ، وهو الاثر البين في الفصص المهجور ، تضاعف في
العوسجة الملتهبة فحل محلّه الطابعُ الرمزي الذي لم يبلغ
حدّ التصفية .

ولنصدّق غصوب عندما يقول في مقدّمة العوسجة الملتهبة :

لا حكمة فيها ولا عظة بل صورتي صورتها بيدي
حالات نفس في سعادتها او في كآبتها ولم ازد

على ان هذا الشعر المتدفق ، سواء في الفصص المهجور
والعوسجة الملتهبة ، من خلجات النفس ، المعبر عن الاحاسيس

صلاح لبكي

الناعمة اللطيفة ، المركبة أحياناً ، خلا من الاسفاف اللفظي
ومن المعتاد المطروق ، مع ميل الى التصفية ، وعناية بالاجزاء
حتى لكأنه 'نَحْتِ نَحْتاً' .

ومن مزايا الرمزية فيه أولاً تمازج الحواس ، حتى يلاحظ
أن حاسة الشم قد نبهت صورة الطيب ، وأن الطيب في
الحديقة سار ، ثم الموسيقى اللفظية التي تهيء نفس القارىء
وتجعله في الحالة الشعرية الخاصة ، ثم هذا الاقتصاد في
الكلام بوميء ايماء لطيفاً وبوصي وحيماً خفيفاً .

غير ان يوسف غصوب ، برغم كل ذلك ، او بسبب كل
ذلك ، ومما جمع به الخيال ، « لا يخرج عن معالم المعنى
تمام الخروج » ، بل يهدي اليه ، ولو كانت لا يعطيه دفعة
واحده ، « فيبقى للقارىء لذتين » : « البحث عن الشيء
والعثور عليه^(١) » .

ولعل هذه الخاصة هي التي ظلت تشفع ليوسف غصوب
عند الذين ثاروا على أديب مظهر والذين لا يزالون يثرون
على سعيد عقل .

(١) الرمزية والادب العربي الحديث للاستاذ انطوان كرم .

لبنان الشاعر

وقبل الاستطراد الى تناول ما اصطُلِحَ على تسميته بالشعر الرمزي في لبنان بأكمل وأجلى مظاهره مع سعيد عقل ، لا بدّ من لفتة خاطفة الى فرنسا . ان الشعراء الذين كانوا في العقد الثاني من العمر حوالي ١٨٧٠ وجدوا أنفسهم بين جيلين من كبار شعراء القرن التاسع عشر ، يدعي كل واحد منهما ان مذهبه هو القانون الشعري الوحيد ، فأوا ان يخطوا لانفسهم طريقاً جديدة ، بعد ان سئوا ثرثرة الشعر الغنائي الخطابي وبرودة النقل الواقعي او الايجابي معاً . فقد كان الرومنطيقيون يجلّون العواطف ويعبّرون عنها بطريقة خطابية ، بينما كان البرناسيون يعبّرون عن الفكر فيما هم ينحتون الشكل نحتاً . فذهب هؤلاء الشباب ، الذين لقبوا بالرمزيين ، الى انه يجب الاجاء بالشعور ايجاءً بواسطة موسيقى الالفاظ والرموز الشفافة ، توخّوا من وراء تجاربهم التوصل بالشعر الى النوع الغنائي الصافي المتجرد من الفكرة الواضحة ومن العاطفة الشخصية ومن الشيء الظاهر . ولكن الذين قبض لهم الانتصار من اتباع هذه الحركة هم الذين تخلّوا عن المطامع الأولى وفاؤوا الى بعض المقاهم السابقة .

ويبقى ان الرمزية ، التي طالما أعلن خصوصها إفلاسها ، قد تركت للأجيال المعاصرة أمثلة فنية لا تقلّ قيمة عن أجمل ما تركته الرومنطيقية والبرناسية من قيم . وهذه

صلاح لبكي

الامثولة الفنية هي الموسيقى الشعرية ، التي بتخلصها من رقابة العقل وبتركها لحدس القارىء . ملء الحربة في تفسير النغم ، تضع بين يدي الشاعر ينابيع لا حد لها من الوسائل الفنية .

والرمزية التي وصلت الى لبنات ليست تلك التي سقط دعائها دون بلوغ الهدف . بل هذه الخلاصة منها التي أغنت تراث الجمالية الشعرية ليس الا . وكان لا بد لسعيد عقل من ان يطرح كمنظري هذه الاسئلة :

ما هي مادة الشعر قبل التعبير ،

كيف يخلق الشاعر القصيدة ، اي كيف تولد هذه المادة الشعرية في رأس الشاعر ،

ما هي لغة الشعر ؟

ولا بد من الاشارة هنا الى ان سعيد عقل يستمد الجواب على السؤالين الاولين من قالري والاب برومون ومن سائر شعراء الرمزية .

يقول : « يسيطر علي » ، قبل النظم ، نغم القصيدة ، ولم يتفق لي ان تركت القلم الا في حالة فقدان هذا النغم ، اي عندما تطغى علي الافكار والصور والعواطف . وبعد النظم أحسن الكون أكثر تألفاً معي منه في المعتاد . الشعر موسيقى والعلم يقر ان الاتحاد بالكون لا يتم الا بواسطة

لبنان الشاعر

الموسيقى ، وان مظهر النفس الطبيعي هو الغناء . وهو يُضيف في مقدّمة المجدلية : « ان الشاعر الحق لا يكون له أفكار وصور وعواطف قبل النظم وعند النظم بل يستحيل عليه ان يكتب شعراً اذا توفر له شيء من ذلك . ان عناصر الوعي لا تلعب في الشعر أقل دور . »

فاذا كان الشعر موسيقى ، فكيف تتولد هذه المادة في رأس الشاعر ؟ هل هي وحي ؟ هل هي من عمل العقل ؟ ويقول في مقدمته جلدنار : « الذي نريد ان نعرض له بقليل من التدقيق هو عمل الخلق بحد ذاته ، نفاجه وهو يتكوّن برأس الخلاق في هذه الثواني الفاصلة العظيمة البهية التي تقرر حظ جزيرة وجود في اوقيانوس العدم . »

لان هذه الومضة التي تولد اثناءها نسرة الجمال عمرها خطف ، يظنها الواحد بسيطة لا هي من نتيجة عقل ولا من عمل منطوق دقيق بدوراته وتعليلاته الصعبة المحكمة ، او يظن انها ابنة شيء مبهم اسمه الالهام او انها عطية آلهة .

لا وجود لاية شرارة جمال الا ووراها عمر من التحضير والكد . موت وقيامه من الموت لا ينتهيان الا بالموت . لا ريب ان هنالك شيئاً من اسعاف الحظ فتفتتح في آن معاً كنوز عديدة مكدسة بالنسيان ، مجموعها كلها ضروري لتكوين أول فكرة عروس بروحها وجسدها . قال بروحها

صلاح لبكي

وجسدها لان في عالم الفن لا يوجد معنى ومبنى ، كنه وشكل ، الا لتقريب المسائل من الفهم . الحياة تجيء بكليتها . ليس هنالك روح ترتدي جسداً ولا جسد ينتظر ان تحل به روح . ومن يقل انه وقع على فكرة وهي بعد بلا تعبير يكن جاهلاً لالف باء الفن . ونحن لا نستطيع القول اننا حصلنا على الفكرة نهائياً ، إلا بعدما تجيء بعبارتها ومن هنا تفريق ارسطو بين الشاعر والنظري .

وعلى كل حال فانه يصعب على عالمنا ، عالم الانسان ، تصور روح بلا جسد . لاننا قد تكوننا هكذا من روح وجسد ويمكن ان تكون الانجولوجيا ، هذا الكتاب العجيب الذي وضعه توما الاكوييني ، محاولة خطيرة في آداب العالم لوصف خليقة بلا جسد ، ولا تقل أهميته من هذه الجهة عن أهميته اللاهوتية .

ويتابع عقل : « ولکم من مرّة انطوى العقل على نفسه ، ولکم من مرّة سكت وفي سكوته اناث وجهشات ، واجباناً مداورات ومسائرات ، او عنف وضرب مهدة في مقلع مستحيل ، او عودة ، بكسرة فقير ، او جرح دام ، او عزم بعد يأس ، الى محاولة جديدة أجراً واشد . يظل كل هذا في ذمّة ذلك العالم الصغير : الومضة الحافظة التي ، اذا ما توفقت مرّة ، تكون قد خلقت لنا نسرة قول ، او نعم ،

لبنان الشاعر

او نحت ، يتوقف على تثبيتها في طرس ، او في وتر ، او
في رخام ، الاستمرار على خلق تحفة او عالم جديد .

فاذا طلعت هذه اللقمة الاولى فيهدر في الذهن شعور
بالنصر ، النصر الخلاق ، ولا تفتأ ان تطل وراها لقمة ثانية
- قد تكون أقوى وأجس - فتنادي بدورها لثالثة ورابعة
وخامسة .

ولكن هذا الهوس العظيم ، الذي يهدم روح العدم
ويطبع في البال وردة من لحم ودم ، لا يمكن ان يدوم
الى الابد . ويمحي جو الشعر ، وكأننا أسدل الستار ورجعنا
الى الارض ، الى الحياة العادية ... فاذا وصلنا الى هنا قد
لا نجد لنا خلاصاً . على الخلاق ان يجتال على المصيبة ، على
جبروته الراكع امامه مهشماً مدمى على المستحيل ذاته
فيشك فيها جميعاً ويستخلص من الضعف قوة فيتصور نفسه
لا أكثر وأكبر بما هو بل يتصور نفسه غير ما هو .

فيلتقط أول نسرة طائرة ، لا لانها أتت موافقة واحتلت
مكانها حلوة متسلطة ليلتقط أول نسرة ، أية نسرة كانت .
لماذا وهكذا . تحكم خلاق سيد موقف ، سيد نصر وكسر .
ومن لا يعرف في هذه الثواني الحرجة الفارغة المرتجفة برداً
ان يفرض فقره غنى ، وجليده ناراً ، وفراغه وجوداً فيعطي ،

صلاح لبكي

من قوة الوهيته على الاشياء ، لمن لا مكان له حقاً بأن
يحتل احتلال الفاتح ، يجسد في مكانه جمود النهاية ، جمود
الموت . وقد يكون هذا الشعور الجديد بالسلطة الطريق
الوحيدة الى السلطة .

فمادة الشعر اذن هي الموسيقى .

اما رايه في لغة التعبير فتتمة لهذا المفهوم الشعري القائم
على الايقاع الغنائي . ومفاده ان اللفظة فقدت بالاستعمال
كبانها العفوي الاول الذي كان هماً بالبوح والتعبير ،
وغدت قيمتها تجارة اصطلاحية فضعت الحاسة الصوتية
على أثر ذلك وقويت الذاكرة . ثم ان المنشئين والشعراء
عمدوا الى وسائل المزج والتركيب ، ليُعيدوا الى اللفظة ما
فقدته من معانيها اللغوية . ولهذا استطاع هؤلاء الشعراء
ان يبلغوا اداءً هو أكثر تساوياً ، في الجوهر وشكل الجوهر ،
مع الشعر الذي كان في نفوسهم ساعةً اختزنوا حالاتهم الشعرية .

وسنرى ، عندما ندرس كيف حقق سعيد عقل في شعره
هذه النظريات ، انه ينبغي لنا ان لا نبالغ في استنكار
ما ذهب اليه من ان الشعر « يقوم على الهدوء الخالص لا
تتلاطم فيه عواطف وفكر وصور » ، فهو لم يقل باستقصاء
الفكر والعواطف والصور ، اذ لو أراد هذا لكان توصل

لبنان الشاعر

حتماً الى استقصاء الكلام ايضاً ، اذ الكلمة ، مهما صُفيت ،
مهما بولغ في التركيب والمزج لاعادة معناها العفوي اليها ،
ستظلّ على الأقل ، ولو عاد اليها معناها العفوي ، هما بالبوح
والتعبير . أي ستظلّ على الاقلّ محتفظة بمعناها العفوي ،
اي بمعنى لا بدّ ان يكون تعبيراً عن فكرة او صورة
او عاطفة .

لقد أراد عقل ان مادّة الشعر ، التي هي الموسيقى ، يجب
ان تحتلّ العواطف والفكر والصور والكلمة سواء بسواء .
والا لأدّى القول الى تعاكس مطلق : الى تقرير ان الشعر
هو غير الشعر وانه الموسيقى ، والى وجوب حذفه من بين
الفنون المستقلة .

المطلوب اذن ليس تحويل الخصائص المعنوية في اللفظ
(الفكر والصور والعواطف) الى خصائص موسيقية بل افاضة
الموسيقى على هذه الخصائص المعنوية وعلى اللفظ نفسه .

قد لا يكون سعيد عقل توصل الى هذا الحلّ الا أخيراً
في المقدمة التي وضعها باللغة العامية (جلنار) ، ولعلّ مطالعته
الفلسفية الواسعة هي التي حملته على تصحيح ما اقتبسه
عن الاوروبيين .

والكننا لا نشكّ في ان سعيد عقل قد سلم من شطط
توحيد الشعر بالموسيقى بحيث تزول ضرورة بقائه مستقلاً

صلاح لبكي

عنها . ونستنتج نظرياً ذلك من كونه قد أراد من النحت والبناء ان يكونا موسيقى . فهل يجوز لنا ان نستطرد الى انه أراد منهما ان ينحلا في الموسيقى وان يزولا فيها ، لان الحجر والرخام والمرمر قد فقدت بالاستعمال كياناتها العفوية الاولى .

وأخيراً ان سعيد عقل ، لو كان قد أراد حقاً من الشعر ان يتحول الى موسيقى ويزول ، لو كان قد رأى ان ليس للشعر كيان خاص متميز مستقل عن سائر الفنون ، لما كان نظم ولا بيتاً واحداً ، ولما كان فهم ان يتعب أحد نفسه بالنظم ، ولما عني أخيراً بشيء اسمه الشعر .

شعر سعيد عقل فيض من الصور تتحرك وتتعاقب وتتولد من مادتها : فسكوت يتمم وحلم يضيء .

هداة تمت وحلم أضاء في حيا مغروق نعاء

وأشياء تستحيل الى ثغور للقبل وأيدي للضم :

أشياء للقبلة فيها فم حلو وللضمة فيها يد

وهو غالباً ما يعمد ، في سبيل التوصل الى تجريد الصور من مادتها ، الى حذف أحرف التشبيه ، لا بقصد الإيجاز ، الذي هو انتقاء أقل الألفاظ مثقلة بأوفر المعاني ، بل بغية

لبنان الشاعر

مزج المشبه بالمشبه به فيصير شبيهاً بنفسه ويتحوّل الى رمز
يوميء اليه ويوحى به .

وانقرطن حوله باقة من الشرر .

فادوات التشبيه تفسيرية والتفسير من تحديد النثر .

وكثيراً ما يعمد الى استعمال الحال :

سمعت بحة الحبيب نشيدا واحسست اهاته اشعارا

والمفعول المطلق :

تتكي رحمة العلي بين جفنيه اتكأ السنى بحضن البرية

واما النعت فهو يورده ، تفادياً للابتدال ، أغلب ما

يورده ، قبل المنعوت ، ويأتي بالمفاجيء منه غير المؤلف :

رمقته يذر ذر الشعر فجرا .

فنحن قد الفنا الشعر اشقر وألفناه اسود ، ولكننا لم

نقع على استعارة في الأدب العربي نجعله فجراً او نجعل من

الابراد وهج مساء . ولقد أخذ سعيد عقل عن الرمزيين :

اقتبس عن فرلين ميلاً الى اظلال الالوان التي تلقى على

الاهواء والذكريات والاشياء مسحة من الحلم والاهام وجواً

من الغرابة .

صلاح لبكي

وأخذ عن بودلير نظرية العلاقات بين مختلف المؤثرات
الحسية .

« لم يكن استنكاف سعيد عقل ، كما يقول الدكتور
انطوان كرم في كتابه الرمزية والادب العربي الحديث ، عن
المادة والجسد في ادراجه ، الا ليقله الى ما حمل اليه الرمزيون
بعد فشل العلم الايجابي وآداب العواطف السطحية ، فانطوى
على ذاته يسبورها لاعتباره ان جوهر الذات لا يقبل التغيير
والتبديل ، فهو ثابت بثبوت الموجودات ، متصل بجوهرها ،
متمم لمهرم الحقائق الازلية جمعا . والشعر الذي نحن في صده
قائم على محاولة الدخول الى أعماق الذات من حيث
تخرج يد المنطق صفره ، وقد أوصد الباب دون العقل
المحلل ، واتبح للحدس الاعمق وحده ان يدخلها . وشعر
سعيد عقل جملة متجه هذا الاتجاه يسكبه في الفاظ كأنها
اخايد الازميل في تمثال » :

انا جيت ذاتي وافرغت اغنية المطلب
انا ثروة كالكآبة عمقا وكالغيب
قل الفتح نمسك في الذات كفا من الصلب
ورشفك نفسك رشف العتيق من المشرب

فهذا الانطواء يربطه بجوهر الأشياء ويربط الجواهر جميعاً
بالحقائق الكونية ويصل نفس الشاعر بهيكل الوجود بالله .

لبنان الشاعر

هذه هي الاساليب البيانية التي استخدمها سعيد عقل للتعبير.

وان الفرق لكبير بين نظرة الرمزيين في لبنان مع سعيد عقل الى الشعر ونظرة الرومنطيين اليه مع الياس ابي شبكة .

ولا نجدتنا ما ورد بصدده من آراء متشابهة كأن يقول الرومنطيقيون مع ابي شبكة في موضوع الصناعة : على ان الشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة فله من شعوره الزاخر ما يصدفه عن هذه الالهية . وعندني ان الشعر ينزل مرتدياً ثوبه الكامل ، وهذا الثوب جزء من الشعور لا يتجزأ .

ويقول الرمزيون مع سعيد عقل : في عالم الفن لا وجود لمعنى ومبنى لكنه وشكل . الحياة تأتي بكليتها لا روحاً تلبس جسداً ولا جسداً ينتظر ان تحل به روح ونحن لا نستطيع القول اننا قد حصلنا نهائياً على الفكرة الا بعد ان تجيء بعبارتها .

وكان يقول ابو شبكة : وقد ما تكون ثقافة الشاعر من الرقي والذوق والموسيقى في روحه يكون البيان راقياً في شعره ، وهذه اللفظة التي يريدنا بول فالري على ان نختارها تتكاتف العناصر الروحية فينا على اختيارها فلا تكلفنا هذا

صلاح لبكي

العناء او تصرفنا عما تراه بصائرنا خلال الاحلام والرؤى فكل ما يكتسبه المرء يصهره جوهر نفسه ، القدرة الحارقة ، فبصير عضواً فيه .

ويقول عقل : ان عطاء الشاعر الفلذة او البيت او القصيدة لأشبه بعطاء الله الكائن . ان القصيدة من الشاعر لكالكائن الحي في أسمى درجاته من الله . والكيونة تعدد بمهور بالبساطة اما تزويج الفن من البساطة فلا يتأتى الا من اعتبار الشعر تراثاً .

الشاعر الحق ، الشاعر الخليق بهذه التسمية ، هو الذي لا يرضى لنفسه بان يطلع قصيدة واحدة او بيتاً واحداً قبل ان يعي شئين اثنين :

جميع التراث العقلي البشري ،

وجميع التراث الكتابي للغة التي يريد التعبير بواسطتها .

واخيراً فاذا كان أهل المدرستين يعدون الشعر تعبيراً عن الحياة فقد اختلفا اختلافاً بالغاً على مفهومها ، فركزها الرومنطقيون في القلب وركزها الرمزيون في العقل .

جعل الأولون التعبير عنها من عمل الوحي ، وجعله الآخرون من كدة الفكر المبدع متأثرين قول بول فالري :
إذا آمن الشاعر بالوحي قتل الابداع .

لبنان الشاعر

مع الأولين انطلاق وبوح وتفجع وأمل ورهبة ورغبة
وفحش وندم وتوبة ومعانٍ وأحاسيس مسبغة على الألفاظ،
وكمال ونقص مستمد من كمال الطبيعة ونقصها .

ومع الآخرين نحت ورأي وتسام الى الكمال واعراض
عن النقص حتى لبكاد تكاتف الكمال يعيب الكمال ، وجمال
يسح من فيض الحاطر على الاخص لا من فيض القلب .

مع الأولين يستتر العقل وراء العاطفة ومع الآخرين
تختفي العاطفة وراء العقل او هي عاطفة العقل يتحسس نفسه
ويعجب بها :

اجل من عينيك حبي لعينيك فان غنيت غنى الوجود
في نجمنا انت وفي مدعى اشواقنا ام في كذاب الوجود
كنت ببالي فاستممت الشذا فيه ترى كنت ببال الوجود
كونت من توق الى الحسن - لا منك - ومن مد يد صوب جود
هل تعرف الاوتار في اوجها فضل المشوقين الى صوت عود

مع الاولين توسع بعاطفة الكآبة ، ومع الآخرين
غبطة وفرح .

لقد أخذ البعض على سعيد عقل تحجر العاطفة ، لانهم لم
يروا في شعره هذه الكآبة وهذا الحزن وهذا التعبير عن الألم .

صلاح لبكي

والحقّ ان شعر سعيد عقل حدث من هذه الناحية في
شعرنا العربي . انه شعر الفرح .

فمن اين ؟

من اين جاءته فكرة الفرح ؟

ربما من المسيحية . فسعيد عقل كثير التبسط في الفلسفة
واللاهوت . والمسيحية قالت دائماً بالفرح . رفعت الاجراس
لاشاعة الفرح .

وأحرقت البخور لاشاعة الفرح .

ووضعت الاغاني الكنسية لاشاعة الفرح .

ومهما يكن من أمر فانه اذا حصرت غاية الشعر بالتعبير
عن الحزن فشعر سعيد عقل ليس شعراً .

ولكن اذا كان الشعر هو ، في جملة ما هو ، تعبير عن
العواطف فان الكتابة ليست الا جزئاً من العاطفة والعاطفة
تتناول جميع الشعور بما في ذلك الفرح . ويكون شعر
سعيد عقل شعر الصحة والعافية والمرح .

الاستهداء بالعقل لخلق الجمال واعتقاد أساليب الرمزية توصلاً
الى التعبير تستدعي عند الشاعر انكباباً طويلاً على الفلسفة

لبنان الشاعر

يقصيه عن منابع العاطفة التي ، مهما تثقت وصقلت ، تظل أقرب الى مفاهيم الناس وأكثر اتصالاً بالحياة واسلس انقياداً للشاعر من معقدات الفكر ومنطقه ومنعرجاته ومحاولاته البائسة لاقتضاء نفسه عن نفسه واستبعاد منطقته وراء مسارح الحلم وغيوم الابهام .

استهوت الرمزية الشعراء الطالعين بما انطوت عليه من فيض صوري ومن حركة ومن هدم لمعالم المحدود بين المحسوسات التي تداخل بعضها ببعضها الآخر واشترك بعضها بمعاني البعض الآخر ، واكتسب ما لا معنى له منها معنى ، كما استهوتهم بما تحلى به الانتاج الرمزي من ظلال وعطور وصور وموسيقى حتى لقد انصرفوا عن المضمون ، مكتفين بهذه الكيمياء العجيبة ، فضل الكثيرون في هذه المهامه وقد أعوزهم التوغل في كنه أنفسهم وفي كنه مفاهيم المدرسة الجديدة وفي كنه الحياة ، فانطلقوا يسودون الصحائف بالفارغ من التعبير الموسيقي محتمين وراء المبدأ القائل ان الشعر لا يتحمل التفسير ، مبتعدين عن المناهل :

ولكم من رفيق ، كصلاح الاسير مثلاً ، تراجع بعد سياحة طويلة عبر الرمزية المتجلية في (واحته) فانتصب خصماً لها .

قال في مقال نشرته مجلة الجمهور سنة ١٩٣٩ عدد ١١٧

صلاح لبكي

صفحة ٣٤ تحت عنوان جيل اللفظية : « هنالك فئة رأت في مطالعاتها السطحية ان الشعر جو يغمر ، لا يعي المعنى وينغمر من الفكرة ، والعاطفة غريبة عنه ، فحاولت ان تحصر اللغة في بضع كلمات ، تكاد لا تخرج عنها لها موسيقية جليبة ، وكنت من هذه الفئة التي رأت في هذه المدرسة وجهاً للسطو ليس اكثر ، ويعنيني الساعة ان أقول ، ان التمرد في كل عمل فني له صلة تامة بالارض التي اطلعت رجل الفن وان ما يصلح لأمة ثانية لا يصلح للأولى ، لذلك كان العيب الاكبر فرض المقاييس واخراج الشعر كأنه مسألة حسابية ، والتف حولنا فريق من الناس ، وليس ادل على ذلك من اجماع أكثر ادباء البلد على ان (نهوند) " خير ما في هذا الشعر ، على انها نظمت في عشر دقائق في السبيل الهين .

اني أشعر الساعة بهاتف بعيد يدفع بي الى درس هذا الشعر على ضوء الخبرة ، وارانني شاعر اكثر مني في هذا النوع ، في تلك القصائد التي بصمتها العاطفة العميقة ، والاحساس الرحب المرمى والرحب الخيال .

ولكم من شاد ارهقه الكد فالقى السلاح ،

ولكم من بلبل ضاع شدوه في المبهمات ،

(١) قصيدة للاستاذ الاسير وهي مازنة لقصيدة سعيد عقل شيراز .

لبنان الشاعر

ولكم من مسرف تخطى الحدود مستتراً بدعوى السوربالية .
ولكن الاتجاه الاخير عودة الى الكلاسيكية ، بفهمها
الاوروبي ، عودة مثقلة بثروة خبرتي الرومنطيقية والرمزية معاً .
فلا اكراه للغة على حمل فوق ما تطيق ،
ولا اغراق في تعمد الغموض حتى الاغلاق ،
ولكن لا ترسل ولا ابتذال .

وهنا ايضاً قد يكون للذين عجز ابناؤهم الروحيون عن
مجاراتهم الى المطلات الجديدة وأفسدوا ارثهم الغالي بالابتذال
فضل السباقين ، وقد نضج فكرهم وسلست لغتهم وانتادت
لهم العبارة بالمران وترفعت عن العمل .

واذا لم نذكر لحبيب ثابت والياس زخريا وسليم حيدر
ورشدي معلوف وعاطف كرم وجوزف نجيم ويوسف حمود
وعلي شلق واحمد ابوسعدي ، على تفاوت ما بينهم ، غير
انطلاقهم من ضمن الحركة الى التوفيق بين جمال ما ينحت
العقل وما تنسج العاطفة ، لا نكون قد وفينا الموضوع حقه .

ويبقى لنا ان نعيّن موضع الاستاذ امين نخله من كل
هذا . فهو نسيج وحده ، شاعر لا تجيش في صدره العواطف
الجامحة ، ولا يعاني ما في تساؤل العقل من ألم ، ينظم ما
يعرض له من خواطر دقيقة ناعمة . في بوحه كثير من

صلاح لبكي

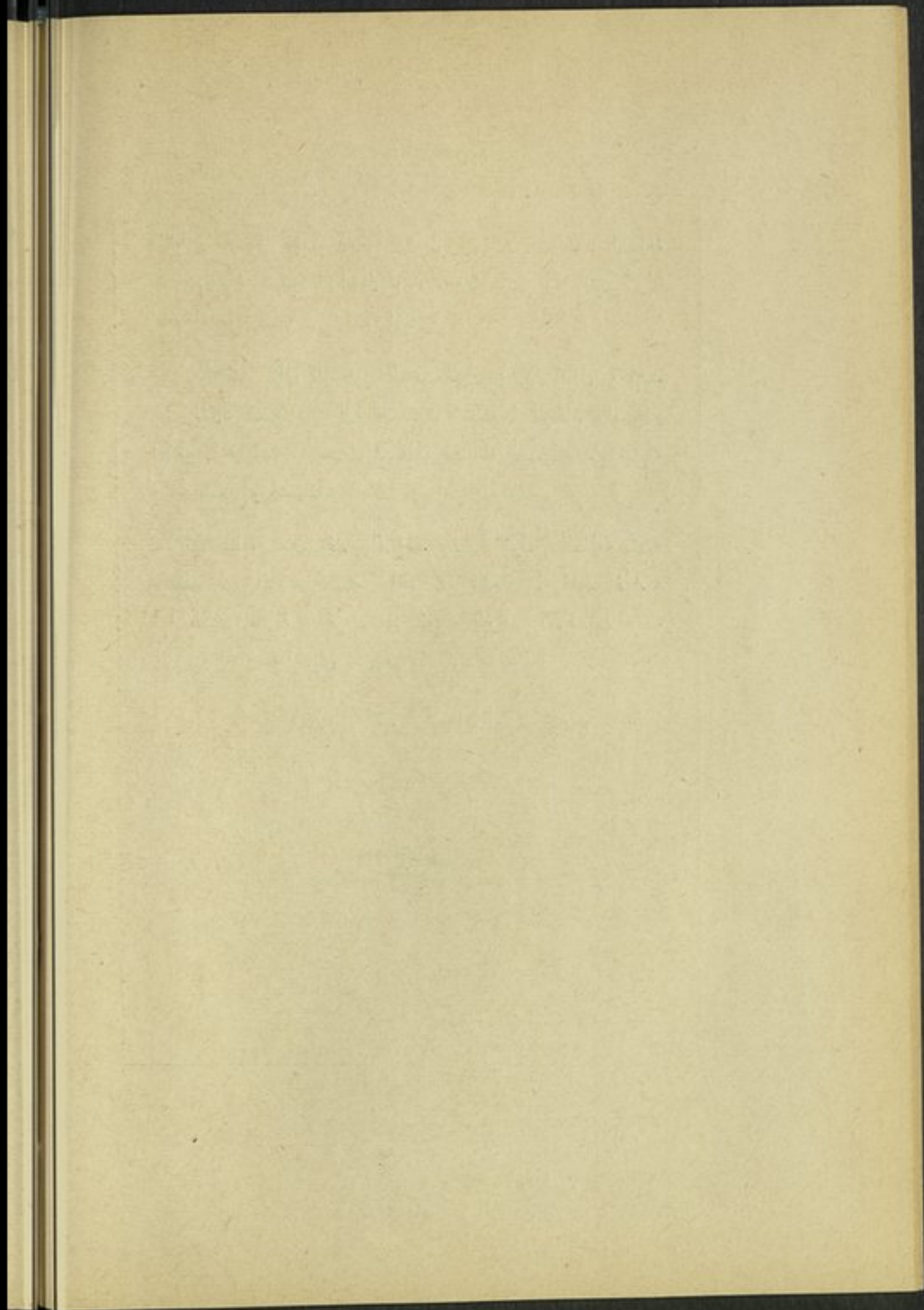
التشهي المستتر خلف غلائل من نور . الا انه سيد الصياغة
بلا منازع ، يتخير الالفاظ تحييراً ، فلا حشو ولا نقص ولا
افاضة ، بل عطاء على قدر المعنى .

ولكن كمال الشكل عنده متعب ، اذا اطال ، مجهد
حتى لبكاد يضيع علينا لذة الاستمتاع بنقاوة الرخام وانسجام
الخطوط وتنادي القسمات . فاذا قصدناه فلنأخذه على مهل ،
ولنستمع به استمتاع العين بالجواهر الكريمة .

ان عناية امين نخله بالصياغة جعلت القوافل الطالعة تتهمة
باللفظية . وانما هي تهمة العاجز عن اللحاق . امين نخله ،
اذا شئنا المقارنة ، أقرب الى شعراء البرناس الفرنسيين منه
الى أية مدرسة اخرى - وهو ما تفرد به عندنا

« من روايتنا القمر جاءه ام لا خبر »





البنائيات الشعرية

الحكمة بنت بيتها ونحمت أعمدتها السبعة . هي عبارة

وردت في الامثال ، الفصل التاسع . حار الشراح بها
وبتفسيرها . فما العلاقة بين بناء البيت ونحمت الاعمدة السبعة ؟
لماذا اقترن بناء البيت بنحمت الاعمدة السبعة ؟ أية علاقة بين
البناء ونحمت الاعمدة السبعة ؟ لماذا لم تنحمت الحكمة لبناء
بيتها غير هذا العدد من الاعمدة ؟ لماذا لم تنحمت أقل ؟
لماذا لم تنحمت أكثر ؟ ظلّ التفسير على الظنّ والتخمين الى
ان اكتشف الاثريون ، في جبيل ، أنقاض اوّل بيت بني
في العالم بالحجر الموقع . ان البيت بالحجر ، وكان يبنى قبلاً
بالحشب والطوب ، قام على أعمدة سبعة ، ركز أحدها في
وسط الدار والى جانبيه الاعمدة الستة : ثلاثة متحاذية هنا
وثلاثة هناك ، مرتبطة كلها بالعمود السابع المتوسط بحيث
اشتبكت الجدران بالسقف في وحدة وطيدة فكانت كلمة
الهندسة متجلية فيها ؛ ومن هنا القول أعمدة الحكمة السبعة .
فهل يكون شغف اللبناني بالبناء تراثاً تحدرّ اليه من تلك

صلاح لبكي

الاحقاب البعيدة ، يوم بنى ، أوّل من بنى ، في المادّة حجراً على حجر ، حتى لقد امتدّت موهبته هذه الى كل فنّ ، فأبى ان يظلّ التصوير رسمة متكررة على سبيل الالتصاق في مساحة لا حدّ لها ولا نهاية ، وان تستمر الموسيقى انغاماً تفلت مترددة في غير تنوع ، متأرجحة في غير تراكب ، متجاوبة في غير تساوق الى الفرار الموحد .

وان يتوالى الشعر أبياتاً متلاحقة مستقل كل بيت في القصيدة عن الآخر معنّى ومبنى .

والبناء في أخص خصائصه انشاء موحد التصميم ، متماسك الاجزاء ، تسوده فكرة واحدة على ما فيها من تشعب ودقائق متعددة ، تستقر معه الاجزاء متناغمة في الكل ويشمل الكل جميع الاجزاء^(١) .

قال الاستاذ المقدسي في كلمة له عن الشعر القديم والشعر الحديث ، أثبتته في ترجمته لقصيدة الذكرى *in Memoriam* لتنسون Tennyson ، مقابلاً بين الشعر العربي والغربي : « ان في الشعر الحقيقي غير الشاعرية وترصيع الكلام ثمة الموضوع الموحى الذي أهمله اكثرنا ، واهتم به الافرنج فسبقونا في الحياة الادبية . ومهما فخرنا بشعرنا وقوة شعرائنا فاننا لا نستطيع

(١) فؤاد البستاني في مقال له على « غلواء » ابي شبكة .

لبنان الشاعر

ان نفخر بمواضيعنا الشعرية وتحقيقاتنا الفكرية التي تجعل
الشعر والفلسفة والحياة مظاهراً لقوة واحدة في النفس المفكرة.
قلِّب ما شئت من دواوين الشعر العربية في أيّ عصر من
العصور السالفة ، فهل تجد مثل تصورات دانتي في جحيمه
وسمائه ، واجتماعيات شكسبير على ألسن رجاله ونسائه. هل
تجد مثل قصيدة الانسان لبوب Pope وهيوذا Hawatha
لونغفللو Longfellow ، والذكري لتنسن Tennyson ، والحلود
لوردسورث Wordsworth ، وعواصف الروح لفكتور هينغو ،
وفوست Fauste لغوته Goethe ، والفردوس المفقود لميلتن .
فالموضوع الشعري لم ينضج بعد في أشعارنا ، وذلك ما يجعل
أكثر شعرنا من باب الفن الخارجي او كما قيل : « كلام
مقفي موزون » .

الشاعر القديم الروح او العصري المحافظ هو على شاعريته
القوية قصير النفس ، ضيق مجال التخيل قلماً يتوكأ الارض
التي ولدته ، فاذا اقتضت الساعة كلمة في مدح او هجاء او
عظة وارشاد ، او وصف وعزل ، أجاد ما أراد ، ولكنه
عاجز عن تشييد الصروح الشعرية العالية التي لا بد في تشييدها
من مرمى ترمي اليه وخطه تشي بموجبها حتى اذا تمت كانت
بناءً فلسفياً ربيعاً يملأ النفس ويسرّ الجوارح .

الا ان هذا الفراغ الذي نعام الاستاذ المقدسي على

صلاح لبكي

الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، ما عتم الشعراء اللبنانيون ان
ملاؤه من فور ما تخلصوا من مركب النقص الذي كان
يدفعهم الى محاكاة القدماء . وفي الوقت الذي كان الاستاذ
المقدسي يدفع بترجمته (الذكري) الى الطبع ، كان جبران
قد أخرج « المواكب » ، وكان الياس ابوشبكة قد بدأ
ينظم « غلواء » ، ثم ما عتم فوزي المعلوف ان أخرج « على
بساط الريح » سنة ١٩٢٠ ، وتأثره شفيق معلوف فنشر
« عبقر » سنة ١٩٣٦ ، وظهرت « قدموس » ١٩٤٤ .

ولا بدّ من الاشارة الى ان البناء الذي عيناه هنا انما
هو الذي حدّده الاستاذ المقدسي ، لا المتجلي في كل شعر
الرومنطبيين والرمزيين اللبنانيين ، ذلك الذي بدأت طلائعه
مع من نعتناهم بالمحضرمين من شعراء اواخر القرن التاسع
عشر ومطلع القرن العشرين ، والذين أخذت القصيدة معهم
تتعافى من التفكيك ومن الاشتغال على الموضوعات المختلفة
تُرج فيها زجاً .

وحرى بالقول ان الشعراء اللبنانيين ، وقد توفقوا الى
تحقيق الوحدة المعنوية ، لم يحاولوا هدم البيت العربي ، هذه
الحلية المتقنة الصياغة ، فظلّ البيت مستقلاً ، وكأنه مقصورة
زاهية النقوش في القصر المنيف الطريف ، وسلمت القصيدة
من التضمين ، نشد وحدة المعنى فيها والاتساق الفكري

لبنان الشاعر

الأبيات بعضها الى بعض ، وكأننا هي الحجارة الكريمة منتظمة
في سلك .

كان المسرح اول ما تصدى له اللبنانيون من البنايات
الشعرية ، فقد اتم الشيخ خليل اليازجي رواية « المروءة
والوفاء » سنة ١٨٧٦ ، ولكن برغم محاولات الشيخ نجيب
الحداد ، فان هذه البنايات الشعرية المسرحية ظلت متقلبة
تتخذ ، اكثر ما تتخذ وسيلة للافاضة في الغزل والمواقف
الحماسية والسرد التاريخي ، الى ان اطل سعيد عقل بمسرحيتي
« بنت يفتاح » و« قدموس » ، فصار يمكننا القول ان لبنان
اطلع المأساة بأتم معانيها .

يتفرع المسرح الى :

Tragédie	مأساة
Drame	وفاجعة
Comédie	وملهاة
Mélodrame	وفاجعة شعبية

ولا ريب في ان أرقى أنواع المسرح هما الفاجعة ، بما
هي صراع بين الانسان والكارثة ، والمأساة بما هي صراع
بين الانسان والقدر .

صلاح لبكي

تصف الاولى عوارض عدة وجماعات كاملة او عسراً
كاملاً او بشرية بأسرها ، وتدرس الثانية عارضاً واحداً بكثير
من العمق والتحليل ؛

وتستدعي الاولى الانشاء الغنائي الملحمي ، وتستدعي
الثانية الانشاء الوضعي الرصين يسيره المنطق خلواً من المقاطع
الغنائية او الملحمية .

قال سعيد عقل في مقدمة « بنت يفتاح » ما مؤداه :

فنحن بالتالي ، ازاء الفاجعة الغنائية الملحمية نحسّ اننا
في قلب أدبنا العربي المدرسي الذي لا يمكننا ان نخلعه
بالكلية .

اما المأساة فانها لتغري ذوقنا الحديث المثقف على الادب
الاوربي ، تغريه بوحدة العارض التي تمكنه من درس النفس
البشرية ، الامر الذي نلتفت اليه بظماً في كتاباتنا الحديثة ،
وتغرينا أخيراً بطريقة تسهل - وهي وحدة ومنطق - عمل
الذوق ، عدو الضوضاء والفوضى .

ولكن سعيد عقل ، وقد شغله هذا الصراع المستطيل بين
الانسان والقدر ، تصدّى للمأساة مع ميل وتبدل الى الغنائيات .
على ان الشعر ظل مصطبغاً بالصبغة الرمزية من إيجاء وإيماء
وابتغاء التعبير عن اللانهاية ومسح الأشياء بظلمة خفيف لا
يجول دون الوضوح وتائق لا يغرب لحظة .

لبنان الشاعر

غير ان الذي يشغلنا الآن من « قدموس » ليس فنّ
الايخراج المسرحي في المأساة . فسعيد عقل أخذ هذه الاسطورة
الاغريقية القائلة انه لما اختطف زوش ، كبير الآلهة ، اورب
بنت ملك صيدون ، لحق بها قدموس الى بلاد الاغارقة
يسترد أخته .

وفي البيوسى قتل تنيناً كان قد فتك باثنين من رجاله ،
وبأمر الهة الحكمة بذر أضراره في الأرض فأنبئت رجلاً
شاكي السلاح اقتتلوا الا خمسة أصبحوا فيما بعد نبلاء ثيبا ،
أولى مدن مئة واحدى سوف يبنيها قدموس .

واورب هي التي أعطت الغرب اسمها كما أعطاه قدموس
حروف الهجاء ، أداة المعرفة .

فافترض عقل ان الالهات ، عندما عرفن بزواج زوش
من اورب ابنة الارض ، غضبن وانبرت هيرا ، زوج زوش ،
تهدد وتتوعد ، فخاف زوش شرهن على اوروب ، فترك عند
بابها ليحميها تنيناً ، وهو وحش من صلب الالهات يمثل
في القصيدة العباوات والجهل والمهجية ، فاذا مات التنين مات
اورب .

وكانت اورب تعرف ذلك . فلما علمت بقدموس قدموس
وبالموقعة الاولى التي دارت بينه وبين الاغارقة خشيت أن
يتصدى له التنين . فحاولت ان تصده متوسلة اليه بمرضعته

صلاح لبكي

ومرضعتها ، مري ، التي كانت قد استقدمتها معها الى البيوسى ،
ثم بالقدَر الممثل بالاعى . ولكن عبثاً ، وتنتهي المأساة
بتغلب قدموس على التنين وبموت اورب .

لا يهتأ ان نبتين هنا ما اذا كان المؤلف قد وفق
الى احترام وحدة العارض ووحدي الزمان والمكان ، ولا
يهتأ معرفة ما اذا كان قد أجاد في تحليل النفس البشرية
في ما يتنازعها من عواطف تعتلج في صدر اورب ومري
مريبتها ، وهما من دون قدموس وحدهما المطلعتان على
المأساة التي زج بها القدرُ جميع أشخاص الرواية . تهتمنا
الرواية من حيث هي بناية شعرية استهدف صاحبها تمجيد
بلاده ورسالتها ، فيتبين على لسان اشخاص أسطوريين كيف
كانت إحدى مراكز النشاط العقلي الاولى ، إحدى مراكز
المعرفة والحضارة ، تمكن الانسان فيها ان يتغلب على
غرائزه ، ويجرّر قواه الروحية ، ويتوصل الى المحبة الخالصة ،
الى جوهر الجمال في الكائن ، الى معانقة النور المنتصر . وترسل
لهذه القيم قاهراً اليم مجتزئاً المسافات موسعاً الآفاق متحدياً
العواصف والاقدار مقيماً العلاقات مؤنساً الانسان مجرداً
بالغاً الشمول .

والفصيحة من هذا القبيل تتدرج تدرجاً رائعاً ، فما
أبعدنا معها عن اللحن الواحد حيال هذه الاغان المتناغمة ،

لبنان الشاعر

وعن عاطفة الفرد حيال عواطف الانسان ، وعن تنازع البشر
فيما بينهم حيال تنازعهم والاقدار . وبما ما أبعدنا عن الفتح
بالسيف حيال الفتح بالحب ، وعن رسالة القوميات حيال
الرسالة الانسانية .

كنن ، يا الصقع ، باسم أورب ، أرض اليمن ،
أرض النعمى ، وأرض الجمال .
باركتك اليد الأملت على القفر
عطاءً ، فعاطل القفر حال .
السخت ، أول الزمان ، على خصب
بلادى بالغيث المحراث ،
آلة الخير خلقتها تتحدى
ان تضنّ الدنى برزق بُغات .
علمت ، وبجها ، أن الفتح كلّ الفتح
بالعمق ، لا بعرض وطول ،

والاسلت روح الخلوص من المحسوس
تجبو العقل الوليد شمولا ،
غربة في العلاء ما برح الانسان ،
فيها ، يغالب المستجيلا .

صلاح لبكي

.....
ولبنان عهد !
ليس أرزاً ، ولا جبالاً ، وماء ؛
وطني الحب ، ليس في الحب حقد .
وهو نورٌ فلا يضل : فكده ،
ويبدُ تبديع الجمال ، وعقل
لا تقل : « امتي » ، وتسطو بدنيا ؛
نحن جارٌ للعالمين واهل !

اما « غلواء » فقصه مؤداها ان شقيقاً يحب غلواء ويريد
الزواج منها . مرضت غلواء ، وذهبت الى صور تستشفى
عند قريبة لها : وردة . وذات ليلة ، تنبث غلواء

فارهفت مسمعا المطروقا فسمعت تنهداً عميقا
يصدر عما ينهش العروقا
وارسلت نظرة برّ طاهر فهاها في التمدع المجاور
فاجرة على ذراع فاجر

فجزعت آتيا جزع ، وفرت هاربة ، ثم دبّت الحمى في
أعضائها وساورتها الاوهام والوساوس :
وقام في احلامها المعذبه رؤيا كأنما هي المرتكبه

لبنان الشاعر

وعادت غلواء الى قريتها .

وراح شفيق يبكي حبه الضائع ، ثم يلتقي الحبيبات ،
وتغفر غلواء وتشفى من أوهامها ولو كانت لم تشف من
آلامها ...

لم يتعرض احد ممن درسوا عندنا هذه القصة الى حلقة
يجب القول انها مفقودة اذا ما أخذ بسرد النقاد للوقائع ، فهم
قد سردوا كما أرادوا ولم يسألوا عن هذا النقص الذي أوجده
سردهم والذي يشوب وحدة القصيدة . فكأنهم قرأوا ولم
يفهموا ، ووقعت عيونهم على الحقيقة ولم تلمحها ، او كأنهم
فضّلوا الاشاحة عن الواقع لينفسح لهم مجال الطعن . على
ان الحلقة ليست مفقودة وعلى ان التوصل الى ربط الاجزاء
يتم بأقل روية .

اننا اذا كنا لا نريد ان نرى ، فسيظلّ هنالك أشياء
غامضة وستظلّ القصيدة مشوّهة معتلة الوحدة ، بل ستظلّ
ضرباً من الهذيان الذي لا طائل تحته .

اذا كنا نفهم ان يصدّم غلواء ، وهي الفتاة البريئة المؤمنة
بنقاوة الحياة ، مشهد الحنا وان تصور لها الاوهام انها هي
المرتكبة فتبغض هذه العلة ، في تنكرها للحب ، كل رجل
وكل امرأة ، كل عاشق وكل حبيبة ، اذ كنا نفهم ذلك
لان مثل ذلك قد يحدث ، فنحن لا نستطيع ان نفهم لماذا

صلاح لبكي

استيقظ الضمير في شقيق مؤنباً مقرعاً معذباً على غير ما
ذنب ، ولا ان نفهم سبب ما يجذوه الى استعطاف غلواء
واستجداء عفوها ولا علة استمرار آلامها بعد شفاؤها من
أوهامها وقد غفرت .

لماذا غفرت ؟ وماذا غفرت ؟ وهل يفسر شيء من ذلك
الا بأن يكون شقيق هو الفاجر الذي دهمته بين ذراعي
قريبتها وردة . (فاذا خلصنا الى هذه النتيجة استقامت لنا
القصيدة بوحدتها ومعانيها) .

واننا لا نقضي بما نقضي على سبيل الظن والتخمين ،
لنقضي على القصيدة ما ليس لها من قيمة . بل انما نستخلص
الحقيقة من الرجوع الى النص ، فهو لا يترك زيادة لمستزيد .
ولا اعجب من ان لا يكون النور قد فقا عيون
الشراح والنقاد .

هنالك ، فضلاً عن ان وجود شقيق في القصة لا يكتسب
معناه الا على ضوء هذا التفسير ، وفضلاً عن ان اقصاه عن
القصة يفقدها كل كيان ، هنالك صراحة النص الذي لا يتحمل
تأويلاً او تحويراً ولا يترك مجالاً لشك .

وبحسبنا ان نرى شقيقاً في صور (والعرض السطحي لا
يقول لنا انه تبع غلواء الى صور) بعد ان غادرتها غلواء وقد
آلمته الذكرى . فتاه وفي عينيه من أمسه الاثيم حطام

لبنان الشاعر

وان نسمعه يخاطب نفسه مبكثاً مقررماً :

طرحتك السماء عن قلب غلواء كقفرع رجسٍ من الأجساد
خائن الحبّ ، ان حبك دون فاحتجب فيه عن عيون العباد

او ان نسمعه ضارعاً يسأل غلواء في المعبد مغفرة له :

امام هذا الهيكل الأطهر امام عين البائس الأكبر
امام أوجاعي امام الالم امام هذا الضعف هذا السقم
وهذه العين التي لم تم

أطرح قلبي للهوى بجمره

وان نسمعا تغمغم :

ما اكفره

هذا الهوى يمضي ويأتي الندم

او ان نصغي الى هذا الحوار بينه وبينها :

فقلت : أحاول ان أتناسى

زماناً مضى وخيالاً عبر

فقال : وماذا يمثل هذا الخيال ؟

فقلت غراماً عثر

فقال وقد جحظت مقلناه :

وهذا ؟ فقلت : حبيباً غدر

- وهذا الحبيب

- غفرت له

ويعفو الهك عما بدر

غفرت كما غفرت في الربيع

زهور الربى لشاء ككفر

بحسبنا ان نسمع كل هذا ، او بعض هذا ، او شيئاً من
هذا لنفهم .

اما لماذا اكتفى ابو شبكة بالاياء والاشارة وبالبحر
الرفيق من دون غمس الاصابع في الجراح ، فتأنقاً واستجابةً
لمقتضيات الفن .

المأساة واضحة ، وغلواء واحدة من الروائع اللبنانية ،
لم يكتفِ الشاعر فيها بوصف الوقائع وصفاً خارجياً على نحو
ما تقع عليه في كثير من الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، بل
تناول فيها هذه المأساة الانسانية ، وراح يحلل العوارض
النفسية التي أحدثتها تحليلاً عميقاً غنياً ، فسيطرت على القصيدة ،
من ذلك ، وحدة داخلية تامة لا يتخللها وهن ولا هبوط ولا
انقطاع . فغلواء بناية شعرية كاملة الاجزاء لا دخل فيها من
المواضيع لغير تحليل هذا العارض ولشئ آتاه في نفوس
أبطال القصة .

لبنان الشاعر

عندما نشرت « على بساط الريح » سنة ١٩٢٠ ، بعد وفاة فوزي معلوف ، أحدثت ضجة كبيرة ، ولا غرو ، فهي اول قصيدة ظهر فيها أثر البناء الشعري بوضوح ، وأحسن الادباء ، في كل قطر من اقطارنا ، ان الشعر قد اغتنى بحدث جديد تخطى عهد الوحدات الصغيرة الى تشييد القصور . لا تعنينا « على بساط الريح » الا من هذه الناحية . لا تعنينا منها فلسفة ولا خيال ولا صياغة ولا موضوع .

جابه فوزي المعلوف في البرازيل المدينة الغربية بكل ما فيها من الحركة والمادة . وطبيعي ان لا تكون المدينة الغربية قد تمثلت في هذا الموطن الجديد بغير الحركة والمادة . فكان تصادم بين الشرق الممثل بالشاعر وهذا المظهر من مظاهر مدينة الغرب « يقول فرنسيسكو فيلا سباسا في مقدمته للقصيدة » ولكن موازنة الشاعر لم تختل بسبب هذا التصادم الفجائي بين عالمين متعاكسين ، فبدع كنتاج طبيعي لمباهاته القومية ، هذه القصيدة نافضاً في اناسيدها الاربعة عشرة اروعاً ما في روح الشرق الخالدة من جمال وقوة وخيال ، (يمثلها الشاعر) مقابلاً بينها وبين مدينة الغرب (تمثلها الطائرة) .

يرى الشاعر في الطائرة تحقيقاً لحلم طالما حلم به :

يا طيور السماء في الريح روحي

صلاح لبكي

بي جربا

على الجلد

وبجسمي طيري الى حيث روحي

فيه تحيا

بلا جسد

ولا يروعننا هذا الانفصال بين الروح والجسد مع بقاء
الجسد حياً. ان هي الا تخيلات شاعر لا فلسفة فيلسوف.

هو حلم مجنح رافق الشاعر

يطوي الاجيال جيلاً فجيلاً

خلعت بقضة العقول جناحين

عليه يحيران العقولا

ما هما من خرافة وخيال

بل هما من حقيقة وهبولى

صعد الطرف في الاثير تجديني

قاطعاً في الاثير ميلاً فميلاً

وهنا وصف لانطلاق الطائفة. ثم هذا الاعتداد بالمصنوع:

حلقي حلقي والقي على الافلاك

رعباً وروعة وفضولا

لبنان الشاعر

واشهدي في الطيور كرا وفرا
واسمعي في النجوم قالاً وقبلاً

ولكن الزهو بالمتحرق العجيب لا يضيع معنى القصيدة
الذي يظلّ تمجيداً لانتصار القوى الروحية لا لانتصار المادّة .
بعد ان يعين الشاعر موطن الروح ويصفها ويعرض
للنزاع القائم بينها وبين الجسد ، بين حريتها وذلّه ذلّ عبد
الحياة والموت ، عبد الشرائع بما تضمنت من جور ، يخط
القوى كل سطره يبراع دم الضعيف له حبر ، عبد القدر
عبد قشور التمدن ، عبد المال ، عبد الاسم والحب والغرور ،
عبد العقل الذي هو بدوره عبد القلب ، والقلب عبد الشعور ،
والشعور عبد الحس ، والحس عبد الجمال ، ينتهي الى القول :

كل ما بي في الكون اعمى ومنقاد
على رغبه لاعمى نظيره
غير روحي فالشعر فك جناحها
فطارت في الجو فوق نسوره
تنتهي عالم الخلود لتجيا
حرة بين روضه وغديره
ينتهي الى امتطاء طائره ليلتحق بروحه .

فتروّع جراءة الدخيل القادم من الارض ، بُؤرة الفساد ،

صلاح لبكي

الطيورَ والغيومَ والنجومَ والارواحَ ، فتجيشُ جيوشها ،
ولكنه يطمئنها كلما التقى منها نوعاً الى انه شاعر هارب
من الارض ، « من اذى اهلها وتكسيل دهره » ، ويظلّ
متابعاً ، حتى يبلغ عالم الارواح ، ويندمج بعنصره الطبيعي
في قلب الاكوان العلوية .

في القصيدة وحدتان متساوقتان :

وحدة الرحلة من الارض الى عالم الارواح ، على متن
طائرة ، اذا كان لها بعض مظاهر الطائرة التي نعرفها فان لها
خصائص لا نعرفها لها كالقدرة على تخطي النجوم الى
ما وراءها الى عالم الارواح ؛ فهذه الوحدة هي ايضاً وحدة
الطريق ، ومنطقها منطق الطريق ، فالانطلاق من الارض
صعداً يحتم التقاء الطيور مثلاً قبل التقاء النجوم ؛

ووحدة هي وحدة الموضوع . خبر بشاعر يحسّ انه
غريب عن الارض ، جاءها مكرهاً ، ولا يزال يحنّ الى
عالمه ، عالم الروح ، الى ان يجترح الشوق الاعجوبة فينقله الى
الموطن الحبيب ، ولا موضوع غير هذا في القصيدة كلها .

اما « عبقر » شفيق معلوف فليست موضوعاً مجهولاً ينسب
اليه العرب كل فائق جليل على حدّ قول ابي البقاء في

لبنان الشاعر

الكليات استعاره الشاعر ليجعل منه موطناً لكل ما ورد
من أساطيرهم (ولقد ورد فيها جلّ أساطيرهم وما جرى
منها على السنتهم) من غير ما فكرة تجمع ، ولا خيط
ينظم ، ولا هدف يبتغي حاشا الوصف والاخبار .

في « عبقر » المألوف شيء مما ورد في المهزلة الالهية ، ففي
القصيدتين خبر برحلة يقوم بها الشاعر الى ما وراء الطبيعة ،
وفيها شيء مما في فوست .

عرض غوته لقضية الانسانية المثلة بشخص المع أبناءها
فوست ، اي لقضية المعرفة ورسالة الانسان .

يستأذن الشيطان ' الله ليجرب فوست العالم المكب على
الدرس والاختبار سعياً وراء المعرفة ، زاعماً انه يستطيع ان
يصرفه عن رسالته فيأذن الله .

ثم يظهر مفيستوفلاس (الشيطان) لفوست ، ويقوده في
رحلة يحاول اثناءها ان يصرفه عن رسالة الانسانية ، مغرياً
اياه بالحب ، ثم بالجمال ، ثم بالسلطان ، ولكن فوست يظل
مشغولاً برسالة الانسان ويكتشف اخيراً ان الناموس الاكبر
هو ناموس العمل المنتج في خدمة الانسانية .

الحياة نضال ، وهكذا يخلص فوست .

القصيدة اذن تعبير عن الثقة بالانسان وبرسالته .

صلاح لبكي

وفي مستهلّ «عبر» ، كما في مستهلّ «فوست» ، خبر
بظهور الشيطان وتغامم بينه وبين الشاعر على رحلة .

والفرق بين الشيطانين ، الالماني والبناني ، هو ان شيطان
«فوست» روح أنيم يعمل على إغراء الانسان وإذلاله ، وان
شيطان «عبر» مصدر وحي الشاعر كما في الاساطير العربية
ودليله . انقلبت عبر الاساطير في خيال الشاعر صورة ترمز
الى الانسان :

عبر لغز الغيب ما وطئت اكناها الا لاربابها
فقم وخض لجة ديجورها واعمل على تمزيق جلبابها
ثم فترى كيف شياطينها تطلّ في عينيك من بابها
وكيف من فيك ثعابينها تنسل من فوهة سردابها
وانظر الى الغيلان في وجرها تصم اذنيك بتصخابها
شورور ماضيك التي اقبلت تكشر في وجهك عن نابها
جمعها كز الزمان الذي مر وفي صدرك القى بها

فالقصيدة محاولة للتعرف الى الانسان .

فكيف عرفه معلوف وكيف قدمه لنا .

تساؤم بالناس ونقمة عليهم لا حدّ لها تبادهنابها
العرافة منذ مستهلّ النشيد الثاني :

لبنان الشاعر

ويجك يا انسان القى عصا سحر ك
ذعرت فينا الجان فعذن بالشيطان
من شرك

ولسكانت تلقي ثعبانها عليه لولا خوفها على الثعبان
من غدره .

ذلك ان الانسان اعمى ، مظلم العقل ، جعل نفسه في
الارض اعلى من ربه ، وحسب عيبه فضلا وتمنطق بالرياء
فاقصى حب الذات عن دربه الالهة :

طغى على الوجود فانشأ الاوطان
وخطط الحدود سباجها النيران

وضحى الجوهر من أجل الرمز ، وحمى زمار الحنا والعهر
والشهوة واستعبده المال .

هذا هو الانسان الذي يصوره لنا شقيق معلوف في
عبقره : مفترس الف الحرب ، كتلة من النقائص المغلفة بأسماء
الفضائل ، اسير للشهوة ، عبد للمال .

امّا امل الخلاص ، الأمل المنقذ ، ففي ان يلهب الانسان
نفسه بنفسه وينبعث من رماد المحرقة فينجيا ، الامل الوحيد
هو العذاب الذي يبتلي الحب به القلوب .

صلاح لبكي

فالحبّ هو الذي يطهر الرجس ، وينقّي الماضي الاثيم ،
ويرفع الانسان من توى الأرض الى مقام النجوم ، ويستبدل
منه الها .

فعبقر ثورة على الانسان ، على ضعفه ، على هوانه وأوهامه .

ولولا ان الشاعر قد فتح للخلاص باسم الحبّ ، الذي
يصل دائماً ما انقطع بين الانسان وربّه ، لكانت أمثل
كتاب للتشاؤم .

عرض الشاعر كل ذلك على لسان أشخاص اسطوريين ،
متخذاً من أساطير العرب رموزاً .

اما الوحدة التي تضم اجزاء القصيدة ، وتجمع بين هذه
الاساطير المتنوعة ، فليست حاصلة من حكاية الرحلة التي يقوم
بها الشاعر مستدلاً بشيطانه ، ولا هي ناجمة عن وحدة عارض
له بدايته وعقده ونهايته بل عن كون موضوعها ، هو الانسان
وقد تناوله الشاعر بشهوانه وأوهامه ونقائضه وأحلامه وقنوطه
وحكمته ، موضوع جليل خطير هو الشغل الشاغل الذي لا
شغل يسمو عليه .

لقد تحدثت عن الجوهر ، ولم أتحدث عن الصنيع الفني ،
ولو كان ينبغي لي ان أتناول هذه الناحية أيضاً لتحم عليّ
ان ابدأ حديثاً جديداً .

لبنان الشاعر

« عبقر » مروج من ذهب الخيال . ريشة الشاعر فيها ريشة في الغمام ، وبحسبنا ان نعود الى اصول هذه الاساطير التي يدور عليها الكلام لتتعرف الى قوة الخيال عنده . هنالك الخبر البسيط ، الساذج ، العاري ، العاطل . وهنا القصة المجنحة ، العميقة ، المؤثرة بألف معطف ، الموشاة بألف لون ، المرنة بألف حلية ، الراقصة على الف نغم .

قال الجاحظ : جعل العرب الزهرة امرأة بغيّاً مسخت نجماً وكان اسمها اناهيد وهذا كل ما في اسطورة اناهيد . فلا أقصر ولا اجف ، فهذه الاسطورة الفقيرة تقمصت على فم الشاعر مأساة متعددة الاشخاص مزجحة بالعواطف والحركة والألوان .

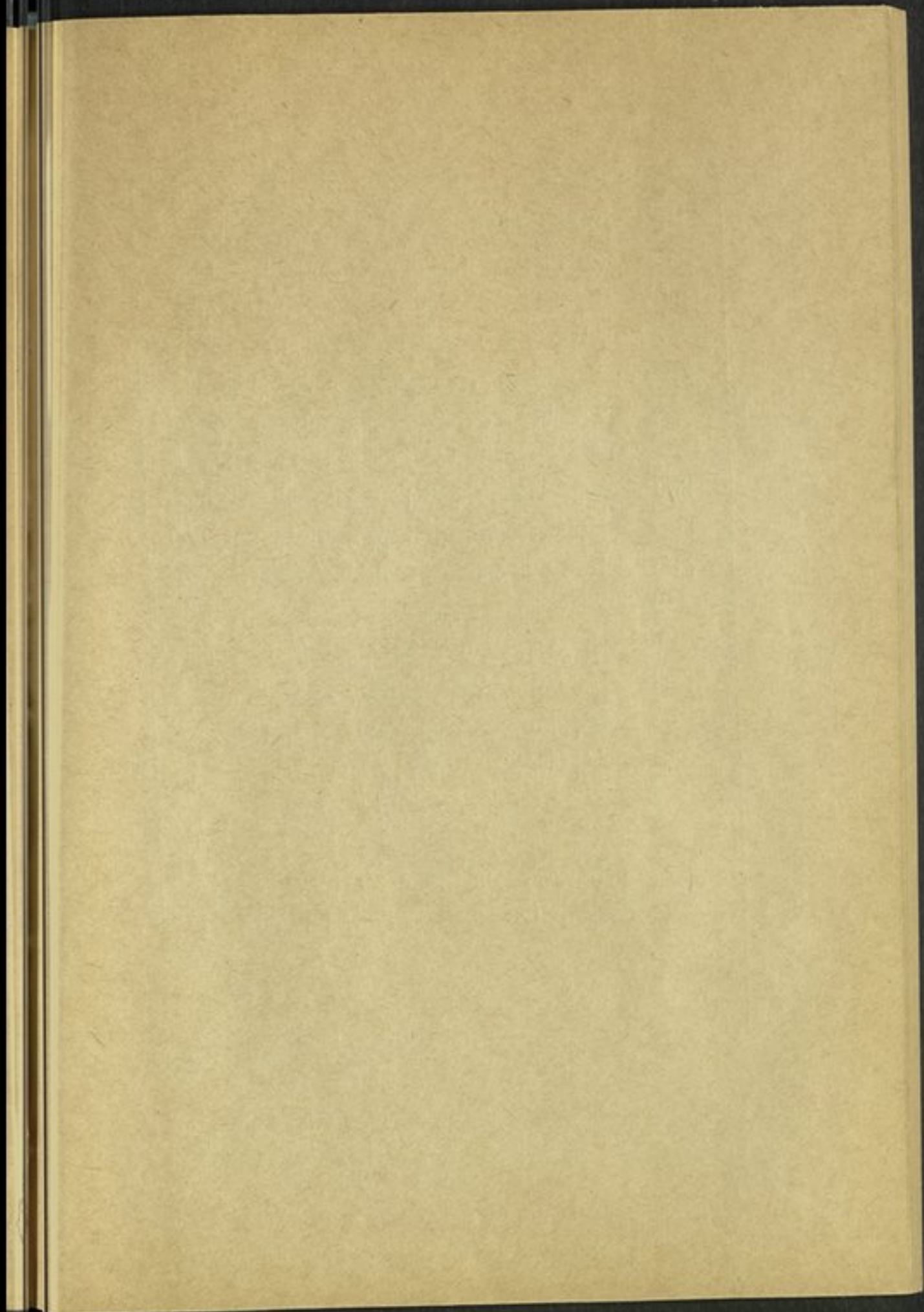
كل ذلك في شعر متنوع الاوزان والقوافي وفقاً للحركة المتوخاة . لغته طيبة ، سهلة الالفاظ ، قوية التراكيب العربية ، لا تمتنع على المطالع ، ولو كانت محاكاتها تعجز المحترفين .

فعبقر ملحمة قلّ نظيرها في الشعر اللبناني ، ترفع من قدره ، وتعلي مقامه ، وهي في المعدودات من الآثار التي تسمح له ان يصمد يوم المقارنة والمقابلة بغيره من الآداب العالمية .

صلاح لبكي

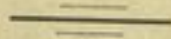
قال ابن الأثير، في آخر المقالة الثانية في الصناعة المعنوية من المثل السائر: «ان الشاعر، اذا أراد ان يشرح اموراً متعددة ذوات معانٍ مختلفة في شعره، واحتاج الى الاطالة بان ينظم مائتي بيت او ثلاثمائة او اكثر من ذلك، فانه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه، بل يجيد في جزء قليل، والكثير من ذلك ردي غير مرضي، والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل في الكتاب الواحد اطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس او أكثر، وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر او اربعمائة او خمسمائة وهو يجيد في ذلك كله. وهذا لا نزاع فيه، لاننا رأينا وسمعنا وقلنا. (وعلى هذا) فاني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها. فان شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من اوله الى آخره شعراً. وهو شرح قصص وأحوال. ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه، وهذا لا يوجد في اللغة العربية، على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها، وعلى ان لغة العجم، بالنسبة اليها، لقطرة من بحر.»

فليطمئن ضياء الدين ابو الفتح بالآ، ويبدأ خاطراً، وتجذل عظامه، ويهنا ترابه، فقد دفع شعراء لبنان هذه التهمة عن الشعر العربي، ولن يفضل العجم العرب بعد اليوم في هذه النكتة المشار اليها.

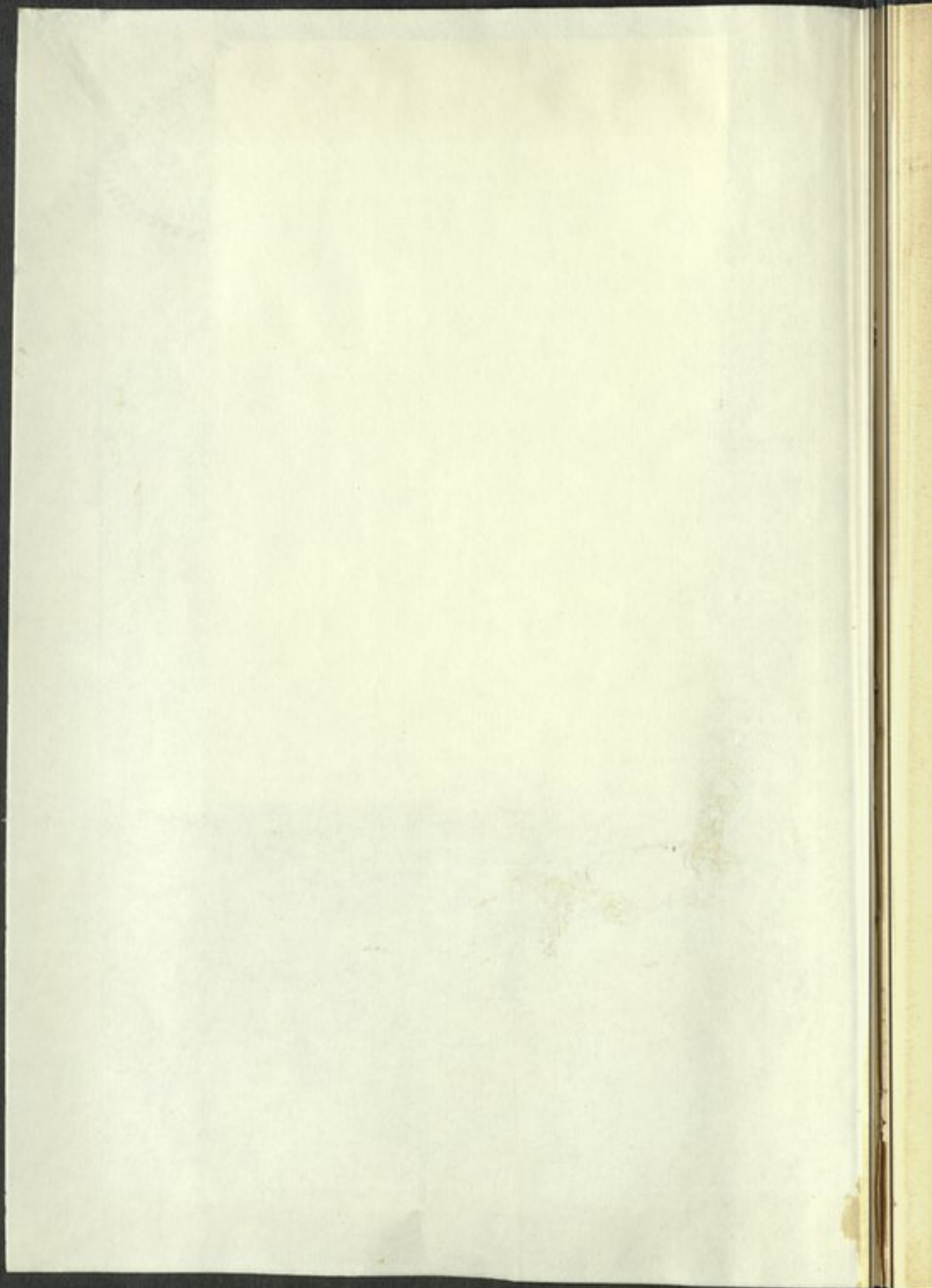


فهرست

صفحة	
	المقدمة
١٧	الشاعرية والجمال
٤٣	بدء النهضة
٦٥	الشعر اللبناني في مطلع القرن العشرين
٩٣	الشعر المهجري - جبران
١٢٥	الشعر المهجري - الرابطة القلمية - العصبة الاندلسية
١٥١	الرومنطيقية في لبنان
١٧١	المدرسة الرمزية
١٩٧	البنائيات الشعرية



مطابع المرسلين اللبنانيين
حزيران - ١٩٥٤



DATE DUE

JAFET LIB.
20 MAY 1999
Circulation Dept. 4

JAFET LIB. LIBRARY 4
11 DEC 2002
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
05 FEB 2000
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
08 DEC 2000
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.
02 JAN 2001
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.
14 DEC 2000
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
11 JUN 2004
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
27 MAY 2004
Circulation Dept. 1

A. U. B. LIBRARY

892.709:L11LA:c.2

لبنان، صلاح

لبنان الشاعر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030969

892.709
L11LA
c.2

